الجـــزء الأول

بريـــة شاسعـــة وصاخبـــة

لا بد وأن يلجوا ويخوضوا عبر برية شاسعة وصاخبة، حيث يتعين أن تصقلهم وطأة الضغوط ويتضرعوا فى تذلل تحت المصاعب الشداد ... قبل أن يمتلكوا تلك الأرض الطيبة التى تفيض بكل الخيرات، وينساب منها وفيها اللبن والعسل.

الأب المبجل توماس هوكر

ممارسة الخلاص، ١٦٥٩

obeikan.com

obeikan.com

الفصـل الأول

الأرض والشعب والقـانون

كان إبراهام لنكولن يرى أن الأمة ـ مهما تجاوز حجمها ككل مجموع أجزائها ـ تتكون من لا شيء يزيد على شعبها وأرضها وقوانينها.

وبالنسبة إلى أمم العالم القديم، التحمت هذه الأجزاء سويًا على نحو لا يمكن فصله فى الحقب التاريخية الطويلة لهذه الأمم. لكن الولايات المتحدة ـ التى تشبه جميع الأمم أنشأها المستوطنون الأوروبيون فى التوسع الكبير الذى بدأ فى أواخر القرن الخامس عشر ـ لم تكن تملك تاريخا قديما. ففى بداية التاريخ الأمريكى، لم يكن هناك سوى الأرض.

جسدت الأرض التى ستصبح الولايات المتحدة عالما مألوفا على نحو غريب، وفى نفس الوقت مغاير للذى ولد ونشأ فيه المستوطنون الأوروبيون الأوائل. كانت أوروبا الغربية عالماً مكتظًا بالسكان، متركزين فى المدن والبلدات والقرى؛ كثيف الزراعة لأراضيه الصالحة لذلك؛ ذا حياة برية محدودة؛ وذا غابات محدودة ومحافظًا عليها بعناية.

كانت أمريكا فى نفس المنطقة المناخية المعتدلة وبها أشجار ونباتات وحيوانات مألوفة إلى جانب أنواع جديدة مثل الراكون والظربان والأذرة والحية ذات الأجراس. ولكن ما وراء الساحل الصخرى لما يعرف الآن بولاية مين والشاطىء الرملى الشاسع الذى يمتد

تقريبا بدون انقطاع من نيو هامپشير حتى المكسيك وما وراء ذلك بكثير، توجد برية لم تمسها يد من أيدى أبنائها البشر إلا فى خفة شديدة.

هذه البرية غابة أضخم من أوروپا الغربية بالكامل، لا يقطعها أحيانًا سوى مرعى لقندس[١]، أوحال، مستنقعات، نتوءات صخرية، جبال عارية، وحقول الهنود المطبق عليها طريقة حش واحرق[٢]. وتنبسط هذه البرية من حافة الماء إلى ما وراء نهر المسيسيپى. من هذه النقطة امتدت البرية مثل أصبع عبر قاع نهر وجدول مائى إلى السهول العظيمة التى تغطى مركز القارة.

لم تكن هذه الغابة الشاسعة بالطبع وحدة متسقة تمامًا. تبادلت أشجار الصنوبر الأبيض العظيمة ـ وهو الخشب المفضل فى صنع القوائم والصوارى للسفن الشراعية ـ المواقع مع غابات الخشب الجامد، وبينما هيمنت أشجارالقيقب والجميز والدردار فى الأراضى المنخفضة، كانت المنحدرات المرتفعة من نصيب أشجار البلوط والجوز. ومع مزيد الاتجاه جنوبًا، انبسطت مساحات شاسعة من أنواع أخرى من الصنوبر بمحاذاة الساحل المطل على المحيط الأطلنطى والتى تتلاقى فى الداخل مع غابات الخشب الجامد على ارتفاعات أكبر.

كان الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية ساحلاً مرحبًا. فقد يسر السهل الساحلى العريض الاستيطان. ووفرت أشباه الجزر مثل كيپ كود ودلمارڤا؛ وجزر مثل لونج آيلاند؛ والشواطىء الحاجزة فى اتجاه الجنوب مأوى للسفن الشراعية منذ وقت مبكر. وهيأت سلسلة من الأنهار ـ مثل مريماك وتشارلز وتيمز وكونيكتيكت وهاوساتونيك وهدسون وراريتان وديلاوير وسوسكويهانا وپوتوماك وراپاهانوك ويورك وجيمس وپيديى وآشلى وكوپر وساڤانا ـ السبيل للوصول إلى الداخل وبعمق بالنسبة إلى السفن الصغيرة ذات القاع غير العميق السائدة حينذاك. ومنذ وقت مبكر وفى عام ١٦٠٩ أبحر هنرى هدسون، وهو رجل إنجليزى يعمل لحساب الهولنديين بسفينته ذات

(١) قندس: حيوان قارض ذو فراء كثيف جمعه قنادس

(٢) الحش والحرق: طريقة للزراعة تقوم على قطع أشجار فى منطقة غابات فى مكان ما ويزرع المكان لمدة لا تزيد على ٥ سنوات ثم تترك الأرض لتناقص خصوبتها

الأشرعة الكاملة«هاف مون» لمسافة ١٥٠ ميلاً صاعدًا النهر الذى سمى باسمه فيما بعد، ووصل إلى ما يعرف حاليًا بإسم «ألبانى». كانت تستغرق رحلة من هذا النوع برًا نحو شهر أو يزيد، واستطاع هدسون، الذى كان يتحرك على نحو مستمر فى مجار مائية غير مألوفة له وضيقة، أن يقطعها فى أسبوع.

ولأن هذه الأنهار تشكلت عندما كان مستوى سطح البحر منخفضًا عما هو عليه اليوم، فقد أدى الارتفاع اللاحق إلى إغراق مصبات الأنهار فوفر موانىء تعد من بين الأفضل على مستوى المحيط الأطلنطى. ونشأت الكثير من أولى المدن فى هذه الدولة ـ بوسطن، نيوپورت، نيولندن، نيويورك، بالتيمور، نورفوك وتشارلستون ـ حيثما وجدت هذه الموانىء.

كان المناخ الذى تعرض له المستوطنون الأوائل، مثل الأرض، مألوفًا وغريبًا فى ذات الوقت. كان معتدلا أكثر من كونه قطبيًا أو مداريًا مصحوبًا بأمطار وفيرة. لكن وجودهم على الحافة الشرقية لقارة كبيرة عرضهم لمناخ ذى طبيعة قارية بينما كان مناخ أوروپا الغربية بحريًا، ويلطفه إلى حد كبير تيار الخليج الدافىء. تتصف فصول الشتاء الأمريكية بأنها أكثر برودة من مثيلاتها فى أوروپا الغربية بينما تتسم فصول الصيف بأنها أكثر حرارة. إن سجلات الدرجات العليا والصغرى فى لندن، التى تقع شمال خط عرض الحادى والخمسين، هى ٩٩ درجة فهرنهايت ودرجتين فهرنهايت ونادرًا ما تقترب من هاتين الدرجتين. وسجلات الدرجات العليا والصغرى فى نيويورك التى تقع مباشرة شمال خط عرض الحادى والأربعين، هى ١٠٦ درجة فهرنهايت وناقص ١٥ درجة فهرنهايت، ويتكرر الاقتراب من الطرفين على نحو محير. وتعد فصول الشتاء فى منطقة نيو إنجلند وفصول الصيف فى مناطق الجنوب طويلة وقاسية بالمقاييس الأوروپية.

لم تكن هذه المساحة الشاسعة غير مأهولة. وأطلق على السكان الأصليين فى أمريكا الشمالية لفظ «الهنود» (les indiens) بالفرنسية (los indios) بالإسپانية، بسبب جهل المستكشفين الأوروپيين الأوائل الذين ظنوا أنفسهم على أعتاب آسيا. وكان السكان الأصليون غير المألوفين يعيشون فى جميع أنحاء القارة. لكن بالمقاييس الأوروپية، كان تعدادهم قليلاً جدًا بالنسبة إلى مساحة الأرض. من المستحيل العثور على أرقام دقيقة،

وحتى التقديرات تتباين بشدة، لكن تعداد الهنود فى شرق أمريكا الشمالية يحتمل أن يقع بين مليون ومليونين نسمة فى زمن كولومبوس. وقد هبط العدد هبوطًا كبيرًا، وفى بعض الأحيان بسرعة، حيث تعرضوا مع ازدياد الاتصال بينهم وبين الأوروبيين قبيل إنشاء المستعمرات، إلى أمراض لم تكن لدى الهنود مناعة ضدها.

ولا يعد الهنود أصحاب ثقافة متجانسة بأى حال من الأحوال، حتى بالمقاييس الأوروبية المتنوعة. كانت توجد نحو ٢٥٠ لغة يتكلمون بها فى أمريكا الشمالية مع بدء الاستكشاف الأوروبى (وحوالى ألفى لغة فى نصف الكرة الغربى ككل). وفى داخل هذه اللغات، انقسم شعب أمريكا الشمالية إلى قبائل كثيرة صغيرة ومتناحرة. وكانت الحروب ذات المستوى المتدنى مزمنة بين هذه الجماعات.

وحدهم هنود وادى المسيسيبى، انتظموا فى وحدة اجتماعية ذات زعامات، معتمدين على الزراعة لإقامة الأود. اعتمد الهنود الذين يعيشون على الساحل الشرقى، المنظمين فى الغالب فى شكل قبائل، بالأساس على الصيد والجمع. خصصت نسبة تقل عن واحد بالمائة من الأراضى المزروعة فى شرق أمريكا الشمالية لزراعة المحاصيل الغذائية. زرع الهنود، باستخدام طرق الحش والحرق، الشعير واليقطين والفاصوليا على قطع أرض لبضع سنوات، ثم يتجهون نحو حقول جديدة بعد اضمحلال خصوبة الحقول السابقة.

على المستوى التكنولوچى، انتمى الهنود إلى العصر الحجرى الحديث، حيث استخدموا أدوات دقيقة، لكنها تفتقر إلى المعادن. ومع هذا، فقد اتسمت ثقافتهم بالتقدم العالى، واستخدموا خلالها المئات من المواد والأساليب التى أطلق عليها جيمس فانيمور كوپر بعد ذلك بقرنين «فن الغابة اللطيف». وجرى تطوير هذه الفنون عبر آلاف السنين من أجل استخلاص سبل للعيش من الأرض، والتى أنقذت المستوطنين بعد أن تعلموها عدة مرات من كوارث، بل ومن الانقراض أثناء كفاحهم لترسيخ أقدامهم فى هذا العالم الجديد غير المألوف.

وأدت الثقافة التكنولوچية الأكثر تقدما التى جلبها المستوطنون وتبادلوها مع الهنود، مع هذا، إلى تدمير الهنود. فبمجرد أن اعتاد الهنود المنتجات الأرقى

للأوروبيين من أدوات معدنية وأقمشة وأسلحة نارية، بدأت تختفى المهارات اللازمة لاستخدام المواد الخام. وبعد وقت ليس بالطويل، لم يكن أمام الهنود خيار للحصول على ما يحتاجون إليه إلا بمبادلته على أسس غير متكافئة على نحو متزايد، وكنهاية حتمية، فقدوا سيادتهم الاقتصادية. وبمجرد أن فقدوا هذه السيادة سرعان ما تبعتها سيادتهم السياسية، ثم بقية مكونات ثقافتهم.

وقع تطوران من أهم التطورات التكنولوچية فى التاريخ البشرى قضيا على عالم العصور الوسطى فى أوروپا بحلول القرن السادس عشر، وجعل من استيطان العالم الجديد أمرًا ممكنًا. فقد خفضت آلة الطباعة بشكل ضخم تكلفة الكتب، وبالتالى المعرفة. ففى منتصف القرن الخامس عشر، بلغ عدد الكتب فى أوروپا بكاملها خمسين ألف كتاب فقط، معظمها تسيطر عليها الكنيسة، التى كانت تدير الجامعات. مع نهاية القرن ذاته وصل عدد الكتب إلى أكثر من عشرة ملايين كتاب فى أوروپا، فى موضوعات شتى لانهاية لها، وكان العديد منها فى الجانب التقنى والزراعى، اقتنتها طبقة التجار البادئة فى النمو والطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضى. وتحطم احتكار الكنيسة للمعرفة، وسرعان ما حدث الشىء نفسه بالنسبة للدين، إثر اجتياح حركة الإصلاح الدينى البروتستانتية لمعظم شمال أوروپا فى مطلع القرن السادس عشر، وأسفرت عن حروب لأكثر من قرن.

كان الاختراع الآخر العظيم فى أواخر العصور الوسطى هو السفينة ذات الأشرعة الكاملة القادرة على قطع رحلات طويلة فى المحيطات. وظلت سفن الأوروپيين حتى وقت متأخر كعام ١٤٠٠ فى معظمها صغيرة وذات صار واحد، لا تختلف كثيراً عن تلك التى استخدمها ويليام الفاتح فى القرن الحادى عشر فى اجتياز القنال الإنجليزى. لكن بحلول عام ١٤٥٠ بدأت تظهر سفن أكبر بكثير مزودة بثلاث وفى بعض الأحيان أربع صوارٍ، والتى أخذت تلعب دورها فى توسيع حدود العالم المعروف للأوروپيين.

كان الأوروبيون فى حاجة إلى هذا. ففى عام ١٤٥٣ استولى الأتراك على القسطنطينية، العاصمة القديمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وظهرت الآن قوة مسلمة بعرض طرق التجارة، تحصل الضرائب على كافة السلع التى تمر. وعلاوة على هذا، أخذ الأتراك يتوسعون داخل أوروپا، وبحلول منتصف القرن السادس عشر

وصلوا إلى أبواب ڤيينا. وشعر العالم المسيحى أنه يتعرض لهجوم لم يسبق له أن تعرض لمثله منذ عصور الظلام، قبل ألف عام مضت.

لكن بفضل السفن ذات الأشرعة الكاملة، كان باستطاعة الأوروپيين الغربيين أن يلتفوا من حول السيطرة المسلمة على طرق التجارة القديمة. ومع نهاية القرن الخامس عشر، دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح عند أقصى طرف لأفريقيا ووصلوا إلى الهند. وبحلول عام ١٥١٠ وصلوا إلى جزر البهارات، مصدر التوابل والبهارات مثل الفلفل، والتى كانت تدر أرباحًا هائلة بمجرد وصولها إلى أوروپا.

تعثر كولومبوس ـ الذى كان يستخدم نظرية سليمة ولكن قائمة على فكرة خاطئة عن حجم الكرة الأرضية ـ فى العالم الجديد عندما حاول الوصول إلى آسيا بالإبحار غربًا فى عام ١٤٩٢.

وبمجرد أن اتضح أن كولومبوس ومستكشفين أوائل آخرين قد عثروا بالفعل على عالم جديد، مولت كل القوى البحرية الكبرى فى أوروپا الغربية الحملات الاستكشافية. وكان الإسپان هم أول من حصدوا أكبر الجوائز عندما فتحوا المكسيك، ثم بعدها پيرو بعشرة أعوام.

بدأت تتدفق كميات كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة على إسپانيا، التى أصبحت القوة المهيمنة فى أوروپا نتيجة لذلك. وأخذت البرتغال فى إنتاج السكر فى البرازيل بحلول منتصف القرن السادس عشر، وهو محصول مربح بشكل هائل عندما يكلف بزراعته عمالة شبه مجانية من العبيد. وبنهاية هذا القرن، بدأ الفرنسيون فى استخدام نهر سانت لورانس فى الإبحار فى عمق قارة أمريكا الشمالية وتأسيس تجارة فراء عظيمة مع الهنود الذين كانوا يعيشون حول البحيرات الكبرى.

لكن باستثناء المستوطنة الإسپانية فى خليج تشيزاپيك التى هاجمها الهنود وهُجرت فى عام ١٥٧٢، ظل الساحل الشرقى لما يعرف الآن بأمريكا الشمالية متجاهلاً تمامًا. كان يبتعد إلى الشمال كثيرًا عن زراعة السكر وإلى الجنوب كثيرا للعثور على أفضل أنواع الفراء هناك. كما أنه لم تظهر به أية إشارات على وجود معادن ثمينة.

مولت إنجلترا الرحلات الاستكشافية لجيوڤانى كابوتى (وهو إيطالى عرف فى عالم الناطقين بالإنجليزية باسم جون كابوت) للبحث عن ممر فى الشمال الغربى. لكنها جاءت متأخرة فى سباق استغلال العالم الجديد عن طريق الاستعمار. وهنا كانت فاتحة. فى عام ١٥٨٥ ومرة أخرى فى عام ١٥٨٧ ، حاول سير والتر رالى تأسيس مستعمرة فى جزيرة روانوكى فى أولبيمرل ساوند، فيما يعرف الآن بكارولاينا الشمالية. اختفت المستعمرة تماما، تاركة رسالة مشفرة محفورة على جذع شجرة. لكن بعد مضى عشرين عاما حاولت إنجلترا مرة أخرى، وفى هذه المرة نجحت.

لم تؤسس المستعمرة فى جيمستاون دولة إنجلترا إنما أسستها شركة ساعية للربح.

عادة ما تحصل الاختراعات الملموسة، مثل آلة الطباعة والسفينة ذات الأشرعة الكاملة على اهتمام أكبر من جانب المؤرخين، لكن الاختراعات الفكرية تماثلها نفس الدرجة من الأهمية. وقد أثبت اختراعان فكريان ظهرا فى عصر النهضة، وهما مسك الدفاتر بنظام القيد المزدوج والشركة، أن لهما أهمية حيوية فى تطور الحضارة الغربية فى العالم الجديد، وبخاصة فيما يعرف الآن الولايات المتحدة.

كان علم المحاسبة معروفًا منذ ظهور الحضارة فى بلاد الرافدين [دجلة والفرات، أى العراق]. وبالفعل فإن الكتابة، وهى السمة المحددة للحضارة، فى أغلب الاحتمالات اخترعت للمساعدة فى مسك الدفاتر. لكن المحاسبة لم تتطور كثيرا لعدة آلاف من السنين التالية، حتى ابتكار مسك الدفاتر بنظام القيد المزدوج فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر. ويسهل نظام القيد المزدوج إلى حد كبير رصد الأخطاء والسماح ببروز صورة مالية أكثر دينامية بكثير لمشروع تجارى ما من وراء الأرقام البحتة. وبفضل نظام القيد المزدوج، أصبح بإمكان الأشخاص أن يستثمروا فى مشاريع تجارية بعيدة، ويستطيعوا تتبع كيفية سير الأمور بالنسبة لاستثماراتهم. وقد رأى فرديناند وإيزابيلا، ملكا إسپانيا، أن يذهب محاسب مع كولومبوس فى رحلته الأولى لضمان حصولهما على نصيبهما بالكامل من الأرباح المأمولة.

أثبتت الشركة المساهمة أنها على نفس القدر من الأهمية. فاستكشاف أراض قاصية بسفن ذات أشرعة كاملة يحمل خطورة مزدوجة ـ فالكثير من السفن، ببساطة، لم تعد

أبدًا ـ ويحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة بمقاييس القرن السادس عشر. كان التاج هو الذى يمول معظم نفقات هذه الحملات فى البداية فى كل دولة. لكن إنجلترا بلد صغير وعدد سكانه صغير، ويفتقر إلى الموارد المالية المتوفرة لفرنسا وإسپانيا. واحتاجت الجمهورية الهولندية هى الأخرى، بعد أن ثارت على إسپانيا فى عام ١٥٧٢، إلى أسلوب آخر لتمويل تلك المشاريع التجارية الباهظة التكاليف، لكنها من المرتقب أن تكون مربحة بشكل هائل والتى كانت بعيدة جدّا عن المقدرة المادية لدى حتى أغنى الأغنياء من المواطنين من الأفراد العاديين.

كانت المشاركة بالطبع قائمة منذ سالف الأيام. لكن فى ظل المشاركة يكون كل شريك عرضة لتحمل ديون المشروع التجارى بكامله. وبالتالى، فإن المستثمر عن طريق استثمار مبلغ صغير قد يجد نفسه مفلسًا إذا أخفق المشروع. كانت هناك حفنة قليلة مستعدة لمثل هذه المخاطرات، خاصة فى ظل مشروع تجارى لن يكون لهم بالضرورة سوى سيطرة محدودة عليه. وحلت الشركة المساهمة هذه المشكلة عن طريق الحد من مسئولية كل مستثمر وقصرها على استثماره فقط. وقد أحال هذا بعضا من المخاطرة إلى دائنى الشركة، ولكنه جعل من الممكن جمع مبالغ هائلة من الكثير من الاستثمارات الصغيرة. وتعد الشركة المساهمة ثانى أهم تطور تنظيمى لعصر النهضة بعد الدولة القومية مباشرة، ومثلها مثل الدولة القومية فقد جعلت من العالم الحديث أمرًا ممكنًا.

تأسست عدة شركات مساهمة إنجليزية بغرض تسهيل التجارة فى مناطق متنوعة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر، من بينها «موسكو كومپانى» عام ١٥٥٥م، «ليڤانت كومپانى» عام ١٥٨٣م، «إيست إنديا كومپانى» فى عام ١٦٠٠م. وأسس الهولنديون أيضا شركة الهند الشرقية. وانتزعت هذه الشركة بسرعة معظم أراضى الإمبراطورية الشرقية البعيدة للبرتغال وجعلت من هولندا، وهى بلد ذو موارد طبيعية محدودة، الدولة الأبرز فى المجال التجارى فى العالم، وأغنى دولة فى أوروپا فى أوائل القرن السابع عشر.

أسس شركة ڤيرجينيا مجموعة من تجار لندن، ومنحها الملك جيمس الأول حق امتياز فى عام ١٦٠٦م. ونص حق الامتياز على أن أهداف الشركة هى مساعدة بناء

إنجلترا التجارى، وزيادة عدد الملاحين الأكفاء فى إنجلترا عن طريق توسيع تجارتها والعثور على معادن ثمينة، وإنشاء مستعمرة بروتستانتية فى أرض معرضة للتهديد الإسپانى، من المستعمرة يقومون بتحويل الوثنيين إلى المسيحية.

فى واقع الأمر، تلقى الهدف الأخير اهتمامًا قليلاً جدًا. فلم يرسل الإنجليز فعلا بعثات تبشيرية على الإطلاق. وبدلا من هذا، رموا فيما يبدو إلى تنصير الهنود عن طريق الضغط الأسموزى الاقتصادى، بهدف «إقامة وزرع رجالنا وتنويع وجود السكان الآخرين هناك، وتوسيع الديانة المسيحية من أجل جلال الله كلى القدرة، ولتعظيم عوائد الزراعة فى هذا البلد، ومن أجل صالح وربح أنفسنا على وجه الخصوص».

وبالتالى من البداية، كان النهج الإنجليزى للاستعمار مختلفًا اختلافًا عميقًا عن مثيله الفرنسى والإسپانى. سعت حكومتا إسپانيا وفرنسا إلى السيطرة والتحكم فى كافة أوجه أنشطة رعاياهم فى العالم الجديد وبذلتا جهودا مكثفة لجعل الهنود يؤمنون بالعقيدة الكاثوليكية، سواء رغبوا فى هذا أم لم يرغبوا.

علاوة على ذلك، جرى السماح للمستعمرين المرضى عنهم فقط بالهجرة إلى إسپانيا وفرنسا الجديدة، لكيلا يشوه المهرطقون ومن لا يحسنون صنعًا هذه المناطق. لكن لم يكن لحكومة إنجلترا إلا القليل مما يمكن أن يخشى عليه فى هذا المشروع وكانت فى غاية السعادة بالتخلص مما لديها من مثيرى المشاكل ـ المتدينين والمجرمين ـ والعاطلين، الذين يوجد منهم الكثيرون جدًا.

كان الاقتصاد الإنجليزى يمر بتغير عنيف جدّا على مدى معظم القرن السادس عشر. فقد نما عدد السكان بسرعة، من نحو ثلاثة ملايين شخص فى عام ١٥٠٠ إلى أربعة ملايين شخص بعد مضى قرن وخمسة ملايين شخص بحلول عام ١٦٥٠. لكن العمالة لم تلاحق الزيادة بنفس الوتيرة. أخذت صناعة الأقمشة، وهى ركيزة التصنيع الإنجليزى منذ أن استقر النساجون الفلمنكيون هناك فى منتصف القرن الرابع عشر، أخذت فى خسران جزءًا من السوق فى مواجهة منافسيها الأوروپيين.

وفى غضون ذلك، بدأ النظام الإقطاعى القديم فى حيازة الأراضى الزراعية فى التآكل هو الآخر. وشرع الأعيان والطبقة الأرستقراطية ـ التى تشكل نسبة ٥٪ من

إجمالى عدد السكان غالبية الأراضى الزراعية فى إنجلترا فى وضع أسوار حول ضياعهم، فشردوا المستأجرين فى مقابل جنى أرباح أكبر بكثير عن طريق تكليف إجراء برعى قطعان من الخراف. ففى القرن الواقع بين عامى ١٥٣٠ و١٦٣٠ فقد حوالى نصف الفلاحين الإنجليز الأراضى الزراعية التى يستأجرونها، ووجد الكثيرون منهم مشقة شديدة فى العثور على عمل آخر.

إضافة إلى ذلك، أدى الضخ المهول من الذهب والفضة فى الاقتصاد الأوروبى الآتى من العالم الجديد، بفضل الفتوحات الإسبانية، أدى إلى حدوث تضخم سريع وارتفعت الأسعار بنسبة ٤٠٠٪ فى القرن السادس عشر.

أخذ المزارعون المشردون وعمال صناعة الأقمشة العاطلون عن العمل، الذين أطلق عليهم اسم «المتسولون ذوو البنية القوية» [١] لتمييزهم عن المتسولين التقليديين الذين أقعدهم مرض أو عاهة، يتدفقون على الطرقات. وعادة ما كان المسئولون المحليون يدفعونهم من إبراشية إلى أخرى حينما لا يرغبون فى تولى أمر رعايتهم. وكانوا يميلون إلى الانجراف نحو المدن ذات الأسواق المركزية والموانىء. وشهدت لندن، التى صارت أكبر مدن إنجلترا بالفعل، سكانها يزيدون من ١٢٠ ألف شخص فى عام ١٥٥٠ إلى ٢٠٠ ألف شخص بعد خمسة أعوام فقط. وبحلول عام ١٦٥٠م، أصبحت لندن الشبيهة بجحور الأرانب وبشوارعها الضيقة المتعرجة والمبانى المتهالكة فيه، أصبحت تأوى ٣٥٠ ألف شخص، الكثيرون منهم فقراء بصورة ميئوس منها.

كان من بين صفوف هؤلاء البشر، إما هاربون من التضور جوعًا أو من رجال الشرطة، اختارت شركة ڤيرجينيا تشغيلهم إلى جانب المغامرين من السادة، الذين كانوا عادة من الأبناء الصغار لعائلات الأعيان. وفى ديسمبر عام ١٦٠٦م غادرت إنجلترا ثلاث سفن، وهى «سوزان كونستانت» و«جودسپيد» و«ديسكڤرى» ووصلت إلى خليج تشيزاپيك فى ٢٦ إبريل عام ١٦٠٧م، وعلى متنها ١٠٥ رجال (توفى منهم ٣٩ رجلا أثناء الرحلة).

(١) المتسولون ذوو البنية القوية: المصطلح يحمل معنى آخر، وهو المتسولون المصممون، الملحاحيون.

ثم أبحرت السفن الثلاث ٦٠ ميلاً فى نهر چيمس ليختفوا من نظر الإسپان، ورست السفن فى ١٣ مايو فيما أصبح جيمستاون.

لكن الموقع المختار لم يكن له أى ميزة غير أمانه النسبى من هجمات الإسپان، فهذا الموقع كان يقع على الضفة الشمالية لنهر جيمس وبجانبه مستنقع. ففى الوقت الذى يحتمل فيه أن يكون المستنقع قد وفر نوعًا من الحماية من الهنود إلا إن البعوض يتوالد فيه بالملايين فى فصلى الربيع والصيف، ونشرت هذه الحشرات الملاريا بين المستعمرين. علاوة على هذا، كان الماء الموجود فى الآبار الضحلة، التى حفرها المستعمرون، ماء عسرا فى العادة بخاصة عند انحسار مياه النهر. وتسبب هذا الوضع فى حدوث تسمم الملح بين المستعمرين الذين كانوا يشربون بغزارة لتعويض العرق الذى يفرزونه بكثافة فى ظل حر ڤيرجينيا اللافح. وعندما تغيض مياه النهر، لم تنصرف المخلفات والقاذورات التى ألقيت فيه إلى المحيط، لكنها تعفنت وهيأت الجو للأمراض مثل التيفود والدوسنتاريا.

وأسفر هذا عن مذبحة، فقد بقى على قيد الحياة من المستعمرين الأصليين البالغ عددهم ١٠٥ أشخاص ٣٨ شخصًا فقط بعد انقضاء تسعة أشهر.

كانت المشكلة الرئيسية تكمن فى أن شركة ڤيرجينيا شرعت بالمغامرة فى مجال تجارى جديد تمامًا ـ المزارع الأمريكية ـ التى أمكن الوصول إليها باستخدام تقنية جديدة على نحو جذرى ـ السفينة ذات الأشرعة الكاملة. مثلما أصبح عليه الحال منذ ذلك الوقت ـ يتبادر إلى الذهن انطباق هذه القاعدة بالنسبة للسكك الحديدية فى مطلع القرن التاسع عشر، وشبكة الإنترنت فى أواخر القرن العشرين ـ حيث يتسم منحنى التعلم فى بدايته بأنه شديد الانحدار ومكلف جدا إلى أن يجرى إجادته والسيطرة عليه قبل تحقيق أرباح منتظمة فى ظل الظروف القائمة. لم يكن لدى تجار لندن الحاذقين تجاريًا والأثرياء جدًا والمهيمنين على شركة ڤيرجينيا أية فكرة عما يستلزمه الأمر لإنشاء مستعمرة ناجحة على حافة البرية الأمريكية، على بعد ثلاثة آلاف ميل وثلاثة أشهر عن الوطن.

نتيجة لذلك، فقد ارتكبوا الخطأ تلو الخطأ عن طريق استمساكهم بوعد العثور على الذهب، وجعلوا المستعمرين راغبين عن الانخراط فى الأعمال التى تقصم الظهور من

فلاحة الأرض البكر. لم يكن هناك بالطبع ذهب يمكن العثور عليه، لكن المستعمرين عثروا على كميات من المايكا[1] وأقنعوا أنفسهم بأنها عرق غنى بالذهب. وكتب القبطان جون سميث فى كتابه «وصف ڤيرجينيا» الذى كان من الكتب الأكثر رواجًا حين نشر فى عام ١٦١٢ «لم يكن هناك حديث، لا أمل، لا عمل سوى التنقيب عن الذهب». واكتشف عند نقله إلى إنجلترا أنه بلا قيمة.

ظلت الشركة فى البداية محتفظة بحقها فى ملكية الأرض، متوقعة أن يعمل المستعمرون فيها أساسًا كفلاحين. لكن لم يكن السادة المغامرون ولا من جرى تجنيدهم ككناسة من أرصفة موانىء لندن وبريستول يميلون إلى بذل المضنى من الجهد من أجل الشركة. كما لم يكونوا بالفعل مزودين بالمهارات اللازمة، فالسادة لم يعانوا ضغط الحاجة، و«المتسولون ذوو البنية القوية» يفتقرون إلى الفرصة.

وكانت النتيجة عادة هى التضور جوعا فى فصل الشتاء، حيث إن الهنود لديهم فائض محدود للاتجار به، وبالرغم من أن الشركة أخذت تنقل المزيد والمزيد من المستعمرين كل عام، إلا أن العدد الإجمالى ارتفع ببطء. فى ديسمبر ١٦٠٩ أجرت جيمستاون تعدادا، فجاء عددهم ٢٢٠ نسمة إنجليزية. وبحلول فصل الربيع كان يوجد فقط ٦٠ شخصا على قيد الحياة، ويرجع هذا إلى حد كبير إلى الافتقار إلى الغذاء. وقد قتل وأكل أحد المستعمرين اليائسين امرأته (ربط إلى عمود وأحرق بالنار عقابًا على جريمته).

هجر المستعمرون المتبقون جيمستاون فى يونيو ١٦١٠ وأبحروا عائدين إلى الوطن، كى يقابلوا ثلاث سفن عند مصب نهر جيمس تحمل ثلاثمائة وافد جديد. وقفلوا عائدين جميعهم مرة أخرى إلى المستوطنة الصغيرة.

بذلت محاولات عديدة للعثور على شىء يمكن تصديره ليسدد الفواتير ويدر ربحًا لحملة الأسهم. ولأن الزجاج كان عليه طلب متزايد فى إنجلترا، لكن الخشب اللازم كوقود لإنتاجه نادر، فقد حاولت الشركة استغلال الغابات اللانهائية والرمال الوفيرة فى ڤيرجينيا فى هذا الغرض لكنها، لم تفلح فى نقله بشكل مربح عبر الأطلنطى. ولم

(١) المايكا: معدن شفاف على هيئة شرائح، يتحمل الحرارة الشديدة

يسفر أيضًا تصدير الحديد والقار والقطران والألواح الخشبية[١] والساسفرس[٢] عن جلب عائد كاف.

بحلول عام ١٦١٦م كانت شركة ڤيرجينيا قد نقلت أكثر من ألف وسبعمائة شخص إلى فيرجينيا، واستثمرت مبلغًا هائلاً وهو ٥٠ ألف جنيه إسترلينى فى مشروعها التجارى فى تشيزاپيك. ولإعطاء القارىء فكرة عما يعنيه هذا المبلغ فى إنجلترا خلال حكم الملك جيمس، كان يتقاضى السيد صاحب الأرض المحترم دخلا سنويًا منها يبلغ ٥٠ جنيها فقط. بلغت عائدات التاج سنويًا من رسوم الجمارك، وهو أحد الموارد الرئيسية لدخل الملك، متوسطًا هو ٧٥ ألف جنيه إسترلينى. لكن كل ما استطاعت الشركة أن تعرضه فى مقابل كل هذه الأموال هو قلعة متهالكة على حافة نهر جيمس تأوى ٣٥٠ شخصًا، يعانى الكثير منهم المرض والجوع.

بعد انقضاء تسع سنوات، استمر موطىء قدم الإنجليز فى القارة الأمريكية الشمالية تحت تهديد خطر الانقراض عبر كثير من النوائب من بينها هجمات الهنود، هجمات الإسپان، المرض والتضور جوعا. لكن لا يقل بأى حال من الأحوال، عن بقية التهديدات لوجود هذه المستعمرة، عجز شركة ڤيرچينيا حتى ذلك الوقت عن التعرف على طريقة تدر بها المستعمرة ثروة أكبر من تلك التى تستهلكها.

تمثلت الإجابة على هذه المشكلة فى نبات شائع فى الأمريكات التبغ. كان التبغ قد وجد أصلا فيما يعرف الآن على أنه پيرو والإكوادور، وجرت زراعته منذ آلاف السنين قبل مجىء الأوروپيين. ليس من المعروف متى بدأ تدخين أوراق التبغ المجففة للمتعة، لكن لابد وأن الوقت لم يطل حتى اكتشفت الطبيعة الإدمانية لهذه الممارسة. ومع وصول كولومبوس إلى العالم الجديد، تفشت هذه العادة فى كل البقاع المعتدلة فى نصف الكرة الغربى، حيث يمكن زراعة التبغ.

جلب كولومبوس التبغ معه إلى أوروپا بعد عودته من أول رحلة. وفى القرن التالى انتشرت العادة بسرعة فى العالم القديم، وانتشرت أيضا زراعة التبغ فى حوض البحر

(١) نوع من الألواح الطويلة أحد طرفيه أرق من الآخر تكسى به جدران المنازل الخشبية.
(٢) شجر أمريكى من الفصيلة الغاربة، ذو لحاء عطر عند تجفيفه.

المتوسط. بدأ الإسپان فى زراعته فى جزر الهند الغربية أيضًا بهدف تصديره. وسرعان ما اجتاحت هذه العادة بريطانيا. كان الملك جيمس ينفر من التبغ، الذى اعتبره من وسائل الشيطان، وكتب وطبع كتيبا بعنوان «الرد المفحم على التبغ». وليس مدهشا أن رعاياه لم يعيروا اهتماما للرأى الملكى، واستمر التدخين فى شعبية متزايدة.

لكن المناخ البريطانى بجوه البارد المطير لم يلائم زراعة التبغ تجاريًا، واضطرت الدولة إلى استيراد معظم احتياجاتها منه من إسپانيا، وهى دولة كثيراً ما كانت تخوض ضدها حروبا.

كان الهنود المحليون فى شرق ڤيرجينيا مدمنين تعاطى التبغ، لكن النوع الذى كانوا يزرعونه لم يلق شعبية وسط المستعمرين الإنجليز الذين ظهروا بينهم. كان المستعمرون يفضلون التبغ الذى ينتجه الإسپان فى جزر الهند الغربية. ثم جلب رجل، يدعى جون رولف، بعض البذور إلى هناك، من المحتمل أن تكون من ترينيداد، فى عام ١٦١٢ وزرعها. نمت البذور بوفرة فى فى مناخ ڤيرجينيا الحار الرطب. وبمساعدة الهنود المحليين (فى عام ١٦١٤م تزوج رولف الأميرة الهندية بوكاهونتاس) أتقن تمامًا فن زراعة ورعاية التبغ الذى يتطلب عناية فائقة.

فى عام ١٦١٦م جلب معه إلى إنجلترا أول محصول تجارى من التبغ وإلى جانبه زوجته. وكان وجود الاثنين حدثًا مثيراً، بالرغم من أن الطقس الإنجليزى قضى على بوكاهونتاس. عندما عاد رولف إلى ڤيرجينيا فى عام ١٦١٧م، احتفلت ڤيرجينيا بأول عيد أمريكى للشكر؛ لأن محصول التبغ فى ذلك العام جرى حصده وبشر بإنقاذ المستعمرة تجاريًا.

كان أول ازدهار اقتصادى أمريكى على وشك التحقق. وعند عودة القبطان جون سميث إلى إنجلترا ، ذكر أن الحاكم الجديد لدى وصوله فى ذلك العام إلى جيمستاون، وجد أنها لا تزيد عن كونها «مكان السوق والشوارع وكل المناطق الأخرى الفضاء مزروعة بالتبغ».

فى عام ١٦١٨م زرع من التبغ ما قيمته عشرين ألف جنيه استرلينى فى ڤيرجينيا ونقل إلى إنجلترا. وبعد مضى أربعة أعوام ـ بالرغم من وقوع هجوم هندى فى ذلك

العام أسفر عن مقتل ثلث المستعمرين، من بينهم على الأرجح جون رولف ـ تضاعف المحصول ثلاث مرات. وبحلول عام ١٦٢٦م بلغ المحصول ما قيمته خمسمائة ألف جنيه استرلينى، وفى عام ١٦٢٩م ارتفع إلى مليون ونصف المليون من الجنيهات الإسترلينية. وفى عام ١٦٣٨م، كانت ڤيرجينيا تصدر من التبغ ما وصلت قيمته إلى ثلاثة ملايين جنيه إسترلينى إلى بريطانيا كل عام، وأصبحت المصدر الرئيسى للتبغ فى أوروبا الغربية، متفوقة على جزر الهند الغربية.

من بين الأسباب الرئيسية فى أن إنتاج التبغ تنامى بهذه السرعة هو تغيير شركة ڤيرجينيا لسياستها فى مسألة ملكية الأراضى فى عام ١٦١٦م. فبدلا من توقع أن المستعمرين يفلحون الأرض لمنفعة الشركة، استطاع المستعمرون الآن أن يمتلكوا الأرض. كما أن الشركة وهى تأمل فى دفع المزيد من الرجال إلى الهجرة، منحت الأرض مجانًا للمستوطنين الجدد ضمن نظام عرف باسم حق الرؤوس. من حق كل رجل يستطيع أن يدفع ثمن رحلته الحصول على خمسين فدانًا، وخمسين أخرى لكل قريب جاء به معه، ولكل خادم تكفل بثمن رحلته. كما أن هؤلاء«الخدم المرهونين بعقد» الذين وافقوا على العمل لمدة سنين لسداد ثمن رحلتهم، من حقهم الحصول على خمسين فدانًا بمجرد أن يسددوا ما تنص عليه عقودهم. بالطبع كان يجب أن يكونوا على قيد الحياة للحصول على الأرض، وقد توفى ٢٥ ٪ من المهاجرين فى عامهم الأول فى تشيزاپيك فى العقود الأولى من عمر هذه المستوطنة.

وبالرغم من وجود هذه المخاطر، فإن احتمال امتلاك مائة فدان مائتى فدان أو أكثر من الأرض مجانا وصافية كان حافزًا قويًا. وفى عصر كانت فيه الزراعة هى المقوم لكل الاقتصادات الوطنية، كانت الثروة تقاس بالفدادين أكثر من الجنيه الإسترلينى. وفى أوروبا التى تفتقر إلى الأراضى الزراعية، فإن مئتى فدان من أجود الأراضى الزراعية تجعل من المرء غنيًا. كانت شركة ڤيرجينيا، عن طريق منحها الأرض تستغل ما سيصبح دوما واحدا من أكثر المزايا النسبية التى تتمتع بها أمريكا: مساحات الأراضى التى لا تنفد تقريبًا.

وكانت السعادة تملأ المستعمرين زارعى التبغ لدفع ثمن رحلات الخدم المرهونين بعقود. ويعد التبغ محصولا يحتاج إلى عمالة كثيفة، وكى تتوافر الكمية المعدة

للتصدير بسرعة، فإنه يتعين أن يزيد عدد السكان بسرعة أيضًا. وبالفعل ظهر ما سيثبت أنه سمة أخرى دائمة من سمات الاقتصاد الأمريكى: نقص العمالة.

أنقذ الازدهار فى التبغ ڤيرجينيا، لكن لم يستطع أن يفعل الشىء نفسه مع شركة ڤيرجينيا. جاء الهجوم الهندى الكبير فى عام ١٦٢٢م وتكاليفه، فأثبت عجز الشركة، التى كانت بالفعل غارقة فى الديون، عن تحمل المزيد. وفى عام ١٦٢٤م نقض الملك جيمس حق إمتياز الشركة المفلسة ووضع يده على ڤيرجينيا على أنها مستعمرة تابعة للتاج. وفى الوقت الذى كره فيه التبغ وعادة تدخينه، لم يساوره أى تأنيب لضميره بشأن فرض الضرائب على استخدامه. ومع ارتفاع إنتاج ڤيرجينيا من التبغ وارتفاع صادراتها إلى إنجلترا وأوروبا، فرض جيمس احتكاراً على هذه التجارة المتنامية بسرعة. وأصبح التبغ خلال جيل واحد يدر ربع عائدات التاج من رسوم الجمارك.

إلى جانب كون التبغ قد بدأ بالفعل فى عام ١٦١٩ تغيير أرض ڤيرجينيا واقتصادها، سيثبت ذلك العام أنه كان عامًا فاصلا فى تاريخ كلٍّ من ڤيرجينيا وتاريخ البلد التى صارت جزءًا منه فيما بعد.

وكان غالبية سكان جيمستاون ـ ذات الاثنى عشر عامًا ـ الساحقة من الذكور فى ظل سعى شركة ڤيرجينيا لإقامة مستعمرة تحتوى على مقومات الحياة فى العالم الجديد. لكن فى عام ١٦١٩م أرسلت الشركة أول سفينة محملة بالنساء إلى المستعمرة، وبلغ عددهن تسعين امرأة، وعلى الفور انقض المستوطنون العزاب، الذين افتقر الكثيرون منهم إلى رفقة النساء، عليهن وتزوجوهن بسعر ما يبلغ قيمته ١٢٥ جنيهًا إسترلينيًا من التبغ. وفى التو، حدث تحول دقيق لا يلحظ بسهولة فى مجتمع ڤيرجينيا. وأخذ الجو الذكورى الشبيه بمخيم لعمال التعدين أو معسكر حربى مقام فى العراء فى الزوال ببطء ليحل محله ببطء مماثل له، شىء شبيه بالمجتمع البشرى الذى تركه سكان ڤيرجينيا الجدد وراءهم فى إنجلترا.

ومع هذا، تشكل أول مجلس نيابى فى نصف الكرة الغربى. فقد انتخب برلمانى عظيم وهو سير إدوين ساندیز أمين خزانة شركة ڤيرجينيا فى ذلك العام مما يعنى فعليًا توليه منصب كبير المسئولين التنفيذيين. وسرعان ما أرسل ساندیز حاكمًا جديداً، وهو

سير جورج ييردلى، وحمله بتعليمات بتشكيل مجلس نيابى، أطلق عليه اسم مجلس المواطنين[1]، وعلى أن يكون الحاكم ومستشاره مجلسًا أعلى فى هذا المجلس التشريعى. واجتمع هذا النموذج المصغر من برلمان وستمنستر للمرة الأولى فى ٣٠ يوليو١٦١٩ فى مبنى كنيسة جيمستاون.

ونحن ننظر الآن إلى ذلك الأمر على أنه إنجاز تاريخى، إلا أنهم لم يرونه كذلك وقتئذ. لقد تمتع الإنجليز بأقل الحكومات تدخلا فى شئون رعاياها على مستوى أوروبا وبأكبر حقوق فردية، والتى تطور مفهومها ـ والذى توجزه كلمة حرية ـ منذ الماجنا كارتا[2]. وقد اعتادت طبقة الأعيان إدارة شئونها المحلية فى المقاطعة وبنفس القدر الجلوس فى البرلمان حيث تسن مع الملك قوانين البلد. ومع البعد الجغرافى الشديد لبرلمان وستمنستر، فقد اعتبر منح ڤيرجينيا مجلسًا تشريعيًا لتدبير شئونها المحلية أمرًا لا يعدو إعطاء أهل ڤيرجينيا «حقوق الإنجليز».

(لم يزر سير إدوين ساندیزڤيرجينيا قط ولكن أخاه جورج، وهو شاعر متميز، عاش هناك لمدة عشر سنوات، من عام ١٦٢١م حتى عام ١٦٣١م حيث عمل كأمين لخزانة المستعمرة. وفى جيمستاون ترجم كتاب أوڤيد «مسخ الكائنات» ليكون بذلك أول شعر إنجليزى نُظِم فى العالم الجديد).

بعد مضى ثلاثة أسابيع على اجتماع مجلس المواطنين للمرة الأولى، وصلت سفينة هولندية إلى تشيزاپيك، وكان ربانها مصممًا على بيع بضاعته من البشر إلى أصحاب المزارع المتلهفين على الحصول على عمال للعمل فى حقول التبغ المتوسعة بشكل مستمر. لم يكن هناك شىء غريب لدى وصول السفينة سوى أن الرجال، الذين حملوا على متنها من أحد الموانىء الإنجليزية، لم يصعدوا بمحض إرادتهم الحرة. جاءوا من أفريقيا حيث بيعوا هناك للربان.

ومع هذا لم يكونوا عبيدًا بشكل كامل، فقد اشترى المزارعون، ومن بينهم الحاكم الذى أخذ معظمهم من أجل مزرعته الخاصة، عقود الرهن وليس الرجال. حالما ينتهون

(١) المصطلح الذى استخدم هو House of Burgesses

(٢) الماجنا كارتا: عبارة لاتينية تعنى الميثاق العظيم وهى وثيقة وقعها الملك جون ملك إنجلترا فى عام ١٢١٥، أقر فيها بتنازله عن حقوق معينة واحترامه لإجراءات قانونية معينة وأن إرادته يمكن أن يحدها القانون.

من مدة عقود الرهن كخدم يصبحون أحراراً، مثل الخدم الإنجليز المرهونين بعقد. وتحقق هذا بالفعل بالنسبة للكثير من السود الذين نقلوا إلى ڤيرجينيا فى الأعوام الأولى للمستعمرة، هذا بالضبط ما حدث حتى انتهى بهم الأمر ملاكا لمساحات ضخمة من الأراضى، بل ملاكا لعبيد. إذا وضعنا فى الاعتبار قصر العمر الافتراضى للمهاجرين إلى ڤيرجينيا، لم يكن شراء العبيد، الذين كانت أسعارهم أعلى، عرضًا اقتصاديًا مغريًا مقارنة بالخدم المرهونين بعقد.

فى عام ١٦٥٠م كان يوجد نحو ثلاثمائة عبد فى ڤيرجينيا، وبالتالى هم أقل من نسبة ٢ ٪ من إجمالى السكان. ولم يعترف بالعبيد السود رسميًا بموجب قانون ڤيرجينيا إلا فى الستينيات من القرن السابع عشر، وظل الخدم المرهونون بعقد أكبر عددا بكثير من العبيد حتى الثمانينيات من القرن نفسه. لكن تحسن الظروف الاقتصادية فى إنجلترا خفف من الضغط للهجرة، وارتفع العمر الافتراضى فى ڤيرجينيا مع اتساع وتطور المستعمرة، وبدأ العبيد فى تجاوز الخدم المرهونين بعقد كمصدر رئيسى للعمالة. وتضاعف عدد العبيد فى الثمانينيات من القرن السابع عشر، وتضاعف مرة أخرى فى العقد التالى.

وفى نهاية القرن السابع عشر، بلغ سعرالخادم المرهون بعقد نحو ١٥ جنيهًا إسترلينيًا لشراء أربعة أعوام من عمله؛ وسعر العبد تراوح بين ٢٥ و٣٠ جنيهًا إسترلينيًا لكنه يعمل به مدى الحياة، بل وامتد إلى ماوراء حياته فى صورة أبنائه. وارتفع العبيد السود كنسبة ليشكلوا حوالى ١٤ ٪ من السكان فى عام ١٧١٠م.

من العسير بالنسبة لنا، نحن المنتفعين بالكثير من إدراك عواقب الماضى، التفهم، لكن الناس فى القرن السابع عشر لم يعتبروا العبودية قضية أخلاقية. لم تتبلور فكرة النظر إلى العبودية على أنها غير أخلاقية إلا فى منتصف القرن الثامن عشر. وحالما ولدت هذا الفكرة، انتشرت بسرعة كبيرة عبر كلٍّ من أوروپا وأمريكا. وعلى الأقل انتشرت بين قطاعات المجتمع التى لا تملك عبيداً؛ لأن المصلحة الذاتية الاقتصادية تشكل عائقًا حادًا أمام صفاء الفكر إزاء الأبعاد الأخلاقية والسياسية لقضية ما.

فى القرن السابع عشر، عندما أحس معظم الناس بأن «نصيب المرء فى الحياة» يحدده الله، واعتبرت العبودية شيئًا لا يعدو كونها سوء حظ شخصى، وليس الشىء البغيض الذى نعدها اليوم عليه، لم تكن العبودية ونوع السلالة البشرية شيئًا متشابكًا.

فى منتصف القرن السابع عشر امتلك رجل أسود، اسمه أنطونى جونسون، مزرعة تبغ بلغت مساحتها ٢٥٠ فدانا على الساحل الشرقى لفيرجينيا وما لا يقل عن عبد واحد. واعتبر نفسه، وبالتأكيد اعتبره جيرانه، ندًا لهم. لم يتردد فى أن يلجأ إلى القضاء كى تطبق حقوقه عندما فر عبده هاربًا منه، ونفذ طلبه.

لكن مع تنامى عدد العبيد السود بمعدل منتظم بشكل مطلق وكنسبة من السكان، فى الوقت الذى أصبح فيه التبغ غير مربح بالمقارنة بتكاليف العمل فى إنتاجه، ووصل السوق إلى مرحلة التشبع، تغيرت الاتجاهات. تزايدت القيود على أنشطة العبيد وأيضًا على السود الأحرار خشية وقوع تمرد، وتزايدت الضرورة الاقتصادية للحصول على المزيد من العمل من كل عبد. ومع بداية القرن الثامن عشر، أصبح محظوراً على العبيد أن يتجمعوا فى مجموعات تزيد على أربعة أشخاص، وتعين حصولهم على إذن كتابى لمغادرة مزارعهم. وتولت الدوريات تنفيذ هذه القيود، وزادات أيضًا الإجراءات التأديبية. كتب صاحب مزرعة يدعى جون بيرد، أن أحد «الآثار الناجمة عن امتلاك عدد كبير من الزنوج هو ضرورة أن تكون شديد القسوة. كثرة أعدادهم تجعلهم وقحين، وعندئذ لابد أن تؤتى الوسائل السيئة بثمار ما لم تؤت به الوسائل اللطيفة».

ومع تعمق الهوة بين السود والبيض ازدادت قسوة البيض، وتجمدت ببطء التبريرات لوضعهم الاجتماعى وظرفهم الاقتصادى لتتحول إلى عنصرية مريرة فتاكة. وثبت أن هذه العنصرية مثل السرطان فى الجسم السياسى للولايات المتحدة، وستكون مكلفة الكثير من الدماء والأموال لبترها. وبالفعل فبعد أن مضى ثلاثمائة عام عليها أخيراً بدأت ـ والآن بسرعة ـ تختفى.

وبالطبع ليس عذرا أن الرقيق الأسود والعنصرية التى تولدت عنه ظهرتا للوجود خلال محاولة التخفيف من حدة مشكلة اقتصادية أمريكية مزمنة وهى نقص العمالة. لكنها على الأقل تعد تفسيرا. إن أكثر الجروح التى نجلبها على أنفسنا وأعظم إخفاقاتنا الأخلاقية كبشر اكتسبناها ببراءة وبلا تبصر.

وسرعان ما ترسخت مقومات الاستمرار الاقتصادى لفيرجينيا مع نجاح التبغ كمحصول يعتمد عليه فى التصدير. لقد جاء متحدثو الإنجليزية إلى العالم الجديد ليستقروا.

الفصل الثانى

باسم الله والربح

إن الشىء الطيب بالنسبة لمنحنى التعلم الاقتصادى هو أن المجتمع يضطر عادة أن يصعده مرة واحدة فقط. لم يمر بأىٍّ من المستعمرات الأخرى التى ستشكل يومًا الولايات المتحدة وقتًا عصيبًا مثل الذى مرت به ڤيرجينيا فى الوصول إلى امتلاك مقومات الاستمرار الاقتصادى.

نشأت مارى لاند، الملاصقة لڤيرجينيا، عام ١٦٣٢م عندما منح الملك تشارلز الأول صديقه سيسيليوس كالفرت، لورد بالتيمور الثانى، حوالى اثنى عشر مليون فدان شمال نهر پوتوماك وجنوب خط عرض أربعين. وأطلق كالڤرت امتنانًا للملك تشارلز، اسم قرينته الملكة هنريتا ماريا، على المستعمرة الجديدة. وبذلك أصبحت مارى لاند أول مستعمرة مملوكة وحكومتها فى يد فرد عادى وليس شركة. كان بالتيمور يأمل فى أن ينشئ مستعمرة يجد فيها أمثاله من أتباع الكاثوليكية ملجئًا من المعوقات التى يعانونها فى إنجلترا، وبالطبع الحصول على دخل محترم من الأراضى الشاسعة التى يملكها، التى تقارب حوالى خمس مساحة إنجلترا بكاملها. فى عام ١٦٣٤م، وصلت أول سفينتين تحملان مستعمرين وهما: سفينة «آرك»، وسفينة «دوڤ».

أرسل بالتيمور أخاه الأصغر، ليناردكالڤرت ليشغل منصب حاكم، يترأس حكومة شبيهة بتلك الموجودة فى ڤيرجينيا. وبالرغم من أن الكاثوليك لم يشكلوا أغلبية

قط فى مارى لاند، أقر المجلس التشريعى الاستعمارى فى عام ١٦٤٩م، قانون التسامح الذى ضمن حقوق كافة المسيحيين (مع أن القانون لم يشمل الحفنة القليلة من اليهود المقيمة فى المستعمرة إلا أنهم لم يتعرضوا للاضطهاد أبدا). وكان هذا أول تشريع من نوعه فى التاريخ الأمريكى.

ازدهرت مارى لاند بسرعة. لم يظهر السكان الأصليون من الهنود أنهم من مثيرى المشاكل، وكانت تربتها الغنية ومناخها الدافئ الرطب مناسبًا تمامًا لزراعة التبغ الذى أثبت، بفضل ڤيرجينيا، أنه يدر الأموال. وعلاوة على ذلك، أعطى الشريط الساحلى لمارى لاند المليء بالحزوز بمحاذاة طويلة على خليج تشيزاپيك، أعطى أراضيها منفذاً سهلاً لنقل البضائع فى رخص.

منح كالڤرت حق الرؤوس بصورة سخية للمهاجرين لتشجيع الهجرة إلى المستعمرة، بالرغم من أنه فرض رسمًا بدليًا [1] ٤ شلنات لكل مئة فدان. تعد الرسوم البدلية، من ناحية النظرية القانونية، مستحقات اقطاعية. وفى الممارسة العملية ضريبة أراض. وسرعان ما ظهرت طبقة ملاك أراض يمتلكون عادة الآلاف من الأفدنة، مثلما الحال فى ڤيرجينيا، إلى جانب أصحاب «مزارع متوسطة». وشكل الأحرار الذين لا يملكون أرضًا، والخدم المرهونون بعقد بقية السكان الأوائل، مع تزايد العبيد ببطء، مثلما الحال فى ڤيرجينيا، مع نمو اقتصاد المزارع.

كانت كارولاينا هى مستعمرة القرن السابع عشر الجنوبية الأخرى، والتى سميت أيضًا تيمنًا باسم أحد أفراد العائلة المالكة، وهو فى هذه الحالة الملك تشارلز الثانى، الذى منحها لمجموعة مكونة من ثمانية من أحبائه، عرفوا باسم اللوردات الملاك. لكن دافع إنشاء المستعمرة لم يأت هذه المرة من إنجلترا إنما من جزر الهند الغربية البريطانية، وبوجه خاص من باربادوس.

بحلول عام ١٦٧٠م أصبح السكر يحتل أعلى مرتبة فى اقتصاديات سلسلة الجزر الصغيرة نسبيًا، والتى امتدت شمالاً انطلاقًا من أمريكا الجنوبية قبل أن تستدير ناحية الغرب نحو جزيرة پويرتو ريكو الإسپانية الأكبر منها بكثير. وقد تجاهل الإسپان هذه

(١) رسم بدلى: يدفع لقاء الإعفاء من أداء خدمات معينة

الجزر إلى حد كبير، ظنًا منهم أنها صغيرة إلى درجة لا تستحق العناء. وسمح هذا للقراصنة البريطانيين والفرنسيين والهولنديين أن يستولوا عليها ويستخدموها كقواعد لمهاجمة السفن الإسپانية. ومع هذا، فبحلول الثلث الأوسط فى القرن السابع عشر، بدأت الأمور تستقر فى هذه الجزر عند اشتغال المقيمين على نحو دائم فى الجزر بالزراعة، وبشكل أساسى زراعة التبغ، وعلى أثر ذلك أخذت مختلف الدول فى بسط سيطرتها السياسية.

وفى البداية جذبت جزر الهند الغربية مستوطنين أكثر من أمريكا الشمالية. وفى عام ١٦٥٠م، فاق عدد المهاجرين الإنجليز الذين يعيشون فى جزر الأنتيل الصغرى عدد الإنجليز فى منطقة نيو إنجلند وتشيزاپيك مجتمعين. لكن تشيزاپيك فاقت جزر الأنتيل فى إنتاج التبغ، وصارت الجزر بحاجة إلى محصول جديد. السكر كان الإجابة، حيث إن أوروپا طورت شهية لا تشبع إزاء هذا المنتج المستخلص من قصب السكر. يعد القصب نباتًا مداريًا نشأ أصلاً فى پولينيزيا، لكنه أخذ يزرع فى القرن السادس عشر فى مناطق حول البحر المتوسط. مع بدء استكشاف الأوروپيين المحيط الأطلنطى، أدخلت البرتغال وإسپانيا إنتاج السكر إلى ممتلكاتهما الجديدة من الجزر مثل ماديرا والكنارى.

وبعد ذلك أدخل البرتغاليون السكر إلى البرازيل وأدخله الإسپان إلى جزر الأنتيل الكبرى. كما جلبوا العبيد السود إلى الأمريكتين؛ لأن السكر محصول يتطلب عملاً يقصم الظهر تحت الشمس المدارية. كما أنه يتطلب أيضًا رأسمال أكبر من أى محاصيل أخرى فى المزارع، كى يتسنى شراء المعدات والأجهزة والمبانى اللازمة لمعالجة عصير القصب لاستخراج السكر.

كان الاستهلاك الأوروپى من السكر ينمو بمعدل بلغ نحو ٥ ٪ سنويًا، وبالتالى يتضاعف الطلب عليه كل أربعة عشر عامًا فى المتوسط. وأصبح السكر عند تمويله بشكل مناسب ومع إنتاج يكفى وفورات الحجم، واحدًا من أعظم المحاصيل النقدية فى تاريخ العالم، جاعلاً من أصحاب مزارع السكر الكبرى فاحشى الثراء على نحو يفوق الأحلام.

ونتيجة لذلك عندما أدخل إنتاج السكر إلى باربادوس، فى ظل مساحة تبلغ ١٦٦ ميلا مربعًا فقط ومكتظة بالمستوطنين الأوروپيين بالفعل، حدث صراع داروينى بين

ملاك الأراضى سعيًا وراء اكتساب مزيد من الأراضى تكفى لجعل إنتاج السكر مربحًا قدر الإمكان. وما بين عامى ١٦٤٣ و١٦٧٠م انخفض عدد ملاك الأراضى الذين تزيد ملكية أراضيهم عن مائة فدان بمقدار الثلثين.

أراد اللوردات ملاك كارولاينا (المستعمرة لم تقسم رسميًا إلى شمالية وجنوبية حتى عام ١٧١٢م) أن يجلبوا سكانًا إلى المستعمرة الجديدة على البر الرئيسى فى أمريكا الشمالية من الذين عجزوا عن الاستمرار فى العيش فى باربادوس. فى عام ١٦٧٠م اجتذبوا مئتين من هؤلاء عن طريق تقديم عروض مغرية إليهم، ١٥٠ فدانًا لكل فرد فى أسرة برسم بدلى متوسط مع عدم تحصيله قبل عام ١٦٨٩ كما منحوا ١٥٠ فدانًا إضافية لكل عبد مجلوب.

وعرضوا أيضا دستورا رسميًا ألفه خصيصًا لكارولاينا أحد اللوردات الملاك، لورد آشلى الذى سرعان ما حصل على لقب إيرل شافتسبرى. ومن المؤكد أن آشلى حصل على مساعدة كبيرة من سكرتيره الشخصى المفكر السياسى جون لوك، وهو رجل سيكون لكتاباته تأثير هائل على الآباء المؤسسين[١] بعد مضى قرن من هذا التاريخ. منح الدستور الحرية الدينية لكل المؤمنين ومجلسًا تشريعيًا للتحكم فى الضرائب المحلية. بل إن الدستور فتح الباب أمام الحصول على درجتين من ألقاب النبالة، فخول إلى اللاندجريف[٢] والكاسيك[٣] الحصول على منح أراض بمساحات شاسعة (ثمانية وأربعون ألف فدان وأربع وعشرون ألفد فدان على التوالى).

ليس من المدهش أن هذه «الخطة الخارقة لتكوين حكومة أرستقراطية فى مستعمرة من المغامرين فى غابة موحشة لم تطأها قدم بشر وسط البدائيين والوحوش البرية» كما وصفها مؤرخ كارولاينا الجنوبية إدوارد ماكريدى، ما كانت لتستمر على حالها طويلا قبل أن تحتك بالواقع. لكن كارولاينا الجنوبية ستظل أكثر المستعمرات الأمريكية أرستقراطية. وعين اللوردات الملاك سير جون ييمنز صاحب المزارع الآتى من

(١) الآباء المؤسسون: جماعة من الرجال الأمريكيين تولوا تأليف وصياغة الأطر السياسية المنظمة للولايات المتحدة، وهم أيضا الموقعون على إعلان الاستقلال.

(٢) اللاندجريف: Landgrave لقب ألمانى يعنى «أميرًا» أو «كونتًا».

(٣) الكاسيك: Cacique لقب فى أمريكا الجنوبية يطلق على زعيم محلى.

باربادوس، الذى أنشب أظفاره بلا هوادة للوصول إلى أعلى قمة البنية الاجتماعية والاقتصادية، وقتل منافسًا له، وتزوج بعد فترة قصيرة زوجته. وقال عنه أحد اللوردات الملاك «إذا كان تحويل كل شىء لربحه الشخصى الحالى هى علامة على كفاءة واقتدار، فإن سير جون هو بلاشك رجل سديد محنك».

سرعان ما تكون مجتمع صغير مزدهر فى تشارلز تاون (اختصر الاسم إلى تشارلستون فى عام ١٧٨٣)، حيث تلاقا نهرا أشلى وكوپر (أطلق عليهما اسم عائلة لورد شافتسبرى المكون من أشلى ـ كوپر) ليصبا فى ميناء تشارلستون. وبحلول عام ١٧٠٠ بلغ عدد سكان المستعمرة نحو ستة آلاف وستمائة شخص (ثلاثة آلاف وثمانمائة أبيض وألفان وثمانمائة عبد أسود).

فى البداية كان اقتصاد المستعمرة، التى تقع إلى الشمال بعيداً عن أن تناسب زراعة السكر، يعتمد على التجارة مع الهنود المقيمين فى داخل البلاد. وتحد جبال الأپالشى المستعمرة شمالاً مكونة حاجزاً طبيعيًّا معتبراً، وتنحسر فى شكل تلال متوسطة فيما يعرف الآن بشمال جورجيا، مما يسهل للتجار الوصول إلى عمق الداخل. وتباهى حاكم كارولاينا مبكراً فى عام ١٧٠٧م بأن «تشارلز ـ تاون تتاجر على بعد ما يقرب من ألف ميل داخل القارة».

كما كانت المنطقة تقع إلى الجنوب عن أن تناسب إنتاج فراء جيد، لكن فى مقابل البطاطين والأقمشة والسلع المعدنية والبنادق والذخيرة والروم[1] والعقود ومنتجات أخرى أوروپية، أمدهم الهنود بجلود الغزلان التى كانت تنقل إلى أوروپا لتصنع منها أغلفة الكتب والأحزمة والقفازات وأى شىء آخر يحتاج إلى جلد ناعم طيع. لم يكن هذا بالتجارة الهينة.

كانت الغزلان تتوافر بأعداد ضخمة، ويستطيع الهنود باستخدام الأسلحة النارية أن يقتلوا أعداداً أكبر بكثير من ذى قبل، طالما حافظت الخصوبة المذهلة لهذا الحيوان على بقاء أعداده متوازنة. صدرت كارولاينا ما بين عامى ١٦٩٩ و١٧١٥م ثلاثة

(١) الروم: مشروب كحولى

وخمسين ألف قطعة جلد غزال فى عام واحد لإنجلترا بلغت قيمتها ٣٠ ألف جنيه إسترلينى.

كانت الأخشاب من غابات الصنوبر الوفيرة فى المستعمرة مطلوبة بشدة فى جزر الهند الغربية، وكانت عناصر تصنيع السفن البحرية، مثل القار، تأتى من نفس المصدر. فى عام ١٧١٧م صدرت المستعمرة أربعًا وأربعين ألف برميل من القار.

وأصبحت الماشية أيضًا أحد الصادرات الرئيسية، بخاصة إلى جزر الهند الغربية التى خصصت كل بوصة من الأرض إلى محصول السكر ذى الربح المهول. وترعرعت الماشية والخنازير فى الأراضى المنخفضة والغابات السبخة والغضة. وكان يسمح للقطعان بالانطلاق فى حرية فى الأجزاء غير المأهولة ويرعاها العبيد السود مستفيدين من مهارات حرفة رعى الحيوانات التى اكتسبوها فى أفريقيا. ونشأ الكثير من أساليب صناعة الماشية ـ مثل وسم الماشية وقيادتها عبر رحلات برية والحصر السنوى لها، والتى ارتبطت فى الأذهان بالغرب الأمريكى ـ فى وقت مبكر فى كارولاينا الجنوبية. حتى القصة الأسطورية المحيطة بالكلمة الأمريكية راعى بقر cowboy أطلقت أول ما أطلقت على العبيد السود الذين كانوا يرعون قطعان الماشية فى مستعمرة كارولاينا.

لكن ما صنع اقتصاد كارولاينا فى واقع الأمر هو الأرز. كان من المفترض أنه أدخل فى التسعينيات من القرن السابع عشر عن طريق واحد من أوائل «النبلاء»، يدعى توماس سميث. لكن أساليب زراعته كثيرة المتطلبات تعلمها البيض من العبيد الذين كانوا يزرعون الأرز فى غرب أفريقيا. وأصبحت المستنقعات واسعة النطاق المتأثرة بالمد والجزر فى أراضى كارولاينا المنخفضة بمجرد حفرها للتحكم فى تدفق المياه، مثالية لزراعة الأرز. وشكلت جزر الهند الغربية والمستعمرات الشمالية وإنجلترا أسواقًا رحبة له. وكانت النتيجة مصدراً مباغتًا للثروة الهائلة. فقد صدرت كارولاينا أربعمائة ألف رطل من الأرز فى عام ١٧٠٠ و٤٣ مليون رطل بعد أربعين عاما. وأصبح من يسمون بملوك الأرز، وهى العائلات التى تحمل أسماء مثل ميدلتون وبول، أغنى الرعايا البريطانيين فى أمريكا الشمالية بعد إضافة أرز كارولاينا حوالى مليون جنيه إسترلينى سنويًا إلى إجمالى الناتج المحلى للإمبراطورية البريطانية.

وفى لاحق أصبح نبات النيلة، وهو نبات تستخرج منه صبغة زرقاء ـ وكثر عليه الطلب فى صناعة الأقمشة البريطانية المتنامية سريعًا فى ذلك الوقت، مما تسبب فى حدوث الثورة الصناعية فى الثلث الأوسط فى القرن الثامن عشر ـ أصبح هذا النبات ثانى أكبر محصول أساسى مربح. وجعلت النيلة والأرز والأخشاب والماشية تشارلز تاون أكثر الموانىء نشاطًا فى الجنوب الأمريكى المستعمر وأكبر بلدة بها، تزينها منازل التجار وأصحاب المزارع الأثرياء والكنائس والمؤسسات التى بنوها مثل مكتبة تشارلستون، ثالث أقدم مكتبة عامة فى الولايات المتحدة.

لأن كارولاينا وتشيزاپيك عثرتا على المحاصيل التى لها أسواق تصدير ضخمة ويمكن إنتاجها أرخص من أماكن أخرى، فقد تطورتا إلى حد كبير فى اقتصاديات المزارع. وبسبب وفورات الحجم، أضحت هذه المحاصيل التصديرية تنتج شيئًا فشيئًا على مساحات ضخمة من ملكيات الأراضى يعمل عليها أعداد ضخمة من العبيد السود. وأسفر هذا بدوره عن خلق مجتمعات ذات تقسيم طبقى عال، حيث تهيمن طبقة صغيرة غنية من أصحاب المزارع الكبار على أصحاب المزارع المتوسطة والأحرار الذين لا يملكون أراضى، وبالتالى تتحكم فى سياسات كل مستعمرة.

عادة ما تخفق اقتصاديات المزارع، المعتمدة على محصول أو اثنين من المحاصيل النقدية، فى تطوير اقتصاد مكتمل العناصر. وقد استحقت تشارلستون أن يطلق عليها وصف مدينة دونا عن أى مكان آخر فى الجنوب، حتى بالمقاييس الاستعمارية. وظل التصنيع المحلى متباطئًا، لأن العوائد الاقتصادية للمحاصيل كانت مربحة جدًا، وبالتالى أصبحت المستعمرات الجنوبية معتمدة على استيراد السلع التى تحتاجها بل وحتى على غذائها من إنجلترا ومنطقة نيو إنجلند التى تسبب افتقارها إلى محصول نقدى إلى تطورها بصورة مغايرة جدًا.

لم تتأسس نيو إنجلند على رجال مفطورين من البداية على المغامرة والربح. بدلا من هذا، كان السبب الأهم للاستيطان هناك هو بناء «مدينة على تل»، مكان يستطيع فيه القديسون ـ المقدر لهم الخلاص الأبدى ـ العيش بدون أن يلوثهم الفساد، وفقًا لوصايا الله.

لكن هذه المدينة على التل، ما تزال مشروعًا قيد التنفيذ بعد مضى نحو أربعمائة عام. وحتى القديسين، على المدى القصير سيضطرون إلى الأكل وشراء ضروراتهم وسيدفعون تكاليف عبورهم المحيط لتأسيس أورشليم الجديدة فيما أطلق عليه أحد أتباع طائفة البيوريتانز (أى الأطهار) «البرية التى تعوى فيها الرياح». كما لم يكن البيوريتانز، مستاءين من الازدهار فى هذا العالم طالما أن عبادة الله تأتى فى المقدمة. وبالفعل، فقد كانوا يعتبرون الازدهار إشارة على نعمة الله، إشارة على أن الفرد حقق الخلاص بالفعل. كان الكثير من تجار القرنين السادس عشر والسابع عشر ينتمون إلى البيوريتانز، والذين كانوا يكتبون على رأس دفاتر الأستاذ الخاصة بهم، «باسم الله والربح».

وأعطوا لفرصهم فى الازدهار دفعة معتبرة أيضا عن طريق الاعتقاد الجازم بأن الكسل يجعل من المرء مرتعًا للشيطان فكرًا وسلوكًا. كان البيوريتانز دائمًا يعملون. وأطلق الكاتب المسرحى بن جونسون، ابن عصر الملك جيمس، على شخصية كوميدية من الأطهار اسمًا مناسبًا تمامًا وهو «حماس الأرض مشغول» فى مسرحيته «معرض بارثولوميو».

لم تكن نيو إنجلند مثل بقية المستعمرات الجنوبية من عدة نواح، بالإضافة إلى الدفعة الأولى وراء تأسيسها. كان المناخ أكثر برودة (لكنه صحى أكثر)، ومصحوبًا بموسم قصير للنمو الزراعى. واتصفت التربة بأنها حجرية ورفيعة، ومحت آخر موجة جليد فى العصر الجليدى المنظر الطبيعى إلى حد كبير حتى وصل إلى القاع الصخرى. (أصبحت التربة التى أزيحت من نيو إنجلند بالنهر الجليدى لونج آيلاند، مارثا زفاينيارد ونانتاكت وكيب كود.)

لم يكن المهاجرون الأوائل متشابهين، فيما عدا كونهم إنجليزًا. وجاء المهاجرون إلى ڤيرجينيا وماري لاند من جنوب إنجلترا ومن خلفية شديدة الفقر، بينما انتمت حفنة منهم إلى عائلات غنية مالكة للأراضى. تركزت هجرة البيوريتانز من منطقة ايست آنجليا، وهى منطقة منبسطة غنية زراعيًا تمتد حتى تطل على بحر الشمال، ممتدة من شمال شرق لندن حتى المقاطعات المحيطة بالعاصمة، وهى أكثر المناطق التجارية تطورًا

فى إنجلترا. وعلاوة على ذلك، ينتمى الكثير من البيوريتانز إلى ما يمكن وصفه اليوم بالطبقة المتوسطة: صغار ملاك أراض أو مزارعون مستأجرون لها، أصحاب حوانيت وصناع مهرة إلى جانب عدد كبير من الأطباء والمحامين ورجال دين بوجه خاص.

ولأن الكثيرين من أتباع الطائفة من الطبقة المتوسطة ويعتقدون اعتقاداً راسخًا فى قراءة الكتاب المقدس، حظيت نيو إنجلند منذ وقت مبكر ربما بأعلى معدل من المتعلمين فى العالم الغربى فى القرن السابع عشر. فعندما تأسست بلدات جديدة ـ كما كان يحدث بمعدل مذهل ـ كانت تبنى مدرسة فى نفس الوقت الذى تبنى فيه الكنيسة تقريبًا. أنشأت مستعمرة خليج ماساتشوستس كلية هارفارد بعد ست سنوات فقط من وصول المستوطنين إلى بوسطن، وقبل أكثر من نصف قرن على إنشاء ڤيرجينيا لكلية ويليام ومارى. كانت توجد مطبعة تعمل فى بوسطن فى وقت مبكر عام ١٦٤٠م.

تمكن معظم مهاجرى نيو إنجلند من دفع ثمن رحلتهم وأتوا بعائلاتهم معهم. لكنهم جاءوا بالقليل من الخدم المرهونين بعقد، بل واستوردوا عددا أقل من العبيد بالرغم من أن العبودية لم تتناقض مع أىٍّ من تعاليم دينهم المتزمت. وفى الوقت الذى بلغت فيه نسبة الرجال إلى النساء فى بدايات ڤيرجينيا حوالى أربعة رجال لكل امرأة كانت النسبة فى نيو إنجلند ستة إلى أربعة. ولم يمر مجتمع نيو إنجلند، بسبب هذا التوازن بين الرجال والنساء بمرحلة «الغرب البرى» قبل أن تستقر الأمور. وإلى جانب ذلك، كان الالتزام الدينى بين معظم المستوطنين الأوائل والقيادة الحازمة من قبل رجال مثل جون وينثروپ ووليام برادفورد، ضمانًا لهذا المجتمع أن يكون ملتزمًا بالقانون على نحو أكبر بكثير من المستعمرات الجنوبية.

وتزايد عدد سكان نيو إنجلند بسرعة كبيرة نتيجة سهولة تكوين العائلات ولأن المناخ الصحى ساعد على وصول أعداد كبيرة من الأطفال إلى مرحلة البلوغ. فقد وصل واحد وعشرون ألف مهاجر إلى نيو إنجلند فى القرن السابع عشر، لكن مع انتهاء هذا القرن بلغ عدد السكان واحدًا وتسعين ألف شخص، وهو ما يفوق السكان البيض فى تشيزاپيك التى استقبلت أعدادًا أكبر بكثير من المهاجرين.

أسست شركات مساهمة كلاً من مستعمرة پلايموث ومستعمرة خليج ماساتشوستس. وأطلق على أعضاء هذه الشركات الذين جاءوا إلى نيو إنجلند لقب أصحاب المزارع. أما الذين بقوا فى إنجلترا واستثمروا أموالهم فى هذا المشروع التجارى فقد أطلق عليهم اسم مغامرين، وهى كلمة مايزال لها صدى حتى اليوم فى المصطلح «رأسمالى مخاطر».

وفى الوقت الذى كان فيه هؤلاء المغامرون حريصين مثل أى فرد آخر على بناء أورشليم الجديدة، إلا أنهم كانوا يأملون فى الحصول على مقابل لاستثمارهم بأسرع ما يمكن. وعندما رست السفينة «ماى فلاور» إثر عودتها إلى إنجلترا فى ربيع ١٦٢١م، بعث مديرو الشركة إلى الحاكم برادفورد رسالة لاذعة وبخوه فيها على عدم إرساله شحنة من السلع القابلة للبيع.

جعلت التربة الحجرية لنيو إنجلند زراعة محصول نقدى عالى الربح مثل التبغ أمراً غير ممكن، كما كان من المستحيل أن تثمر الزراعة فى نيو إنجلند محاصيل تصديرية بكميات كبيرة، وذلك بالرغم من أن نيو إنجلند كانت تصدر الماشية إلى جزر الهند الغربية. لكن إذا كانت التربة غير واعدة، فإن البحار المحيطة غنية بالإمكانات.

استكشف القبطان جون سميث ساحل نيو إنجلند فى عام ١٦١٤م وهو الذى منح المنطقة الاسم الذى عرفت به فيما بعد. كان يأمل، كما هو الحال دائمًا، فى العثور على الذهب. عندما أخفق فى ذلك، أطلق رجاله لصيد سمك القد.

تعد سمكة القد، التى يمكن أن تنمو حتى يبلغ وزنها نحو مائتى رطل، أكلة رئيسية ضمن النظام الغذائى للأوروپيين على مدى قرون. ولا يفسد هذا النوع من السمك لمدة شهور إذا ما جفف وملح، وهو من المصادر الأساسية للپروتين الحيوانى. كانت المناطق التقليدية لصيد القد فى أوروپا هى بحر الشمال والاتجاه غربًا ناحية إيسلندا. ثم اكتشف صيادو الباسك فى القرن الخامس عشر مناطق أكثر غنى بهذا السمك أمام سواحل أمريكا الشمالية. ويفضل سمك القد المياه الضحلة، وهذا بالضبط ما توفره وبمساحات واسعة سلسلة من الضفاف أمام نيو إنجلند والجزء المطل من كندا على المحيط الأطلنطى. وبالإضافة إلى ذلك، يتلاقى تيار لبرادور البارد المتدفق

ناحية الجنوب مع تيار الخليج الدافىء المتدفق ناحية الشمال أمام تلك الضفاف، مقلبًا المياه ومحركًا لكميات ضخمة من المواد المغذية. والنتيجة هى جنة لسمك القد، والتى تعد أغنى مناطق صيد فى العالم.

كان هناك صيادون إنجليز يعيشون فى نيو إنجلند حتى قبل بدء هجرة البيوريتانز فى عام ١٦٢٠م فى قرى مين ونيوهامپشير وماساتشوستس شمال بوسطن، وبخاصة بلدتى ماربلهد وجلوستر، اللتين ماتزالان ميناءين للصيد حتى يومنا هذا. ولم يكن معظم الصيادين من البيوريتانز، لكنهم كانوا مجموعة أكثر مشاكسة وأقل تعليمًا وأقل تدينًا. فبالرغم من أن ماربلهد كالنت تعج بالحانات، فإنها لم تبن بها كنيسة حتى عام ١٦٨٤م. لكن القد الذى كانوا يأتون به كان الدعامة الرئيسية لاقتصاد نيو إنجلند فى بواكير نشأته. وعندما عطلت الحرب الأهلية الإنجليزية بشكل حاد الاقتصاد البريطانى فى عام ١٦٤١م، شحنت نيو إنجلند ستمائة ألف رطل من القد المجفف إلى أوروبا وجزر الهند الغربية. وبعد مضى ثلاثين عامًا، صدرت ستة ملايين رطل من القد.

يتسبب نشاط فى مجال ما فى إحداث آثار جانبية فى مجال آخر بعيدة تماما ضمن النظام البيئى المعقد الذى هو الاقتصاد. وفى بعض الأحيان تعد هذه الآثار الجانبية آثارا طيبة، وفى أحيان أخرى ليست كذلك. فى هذه الحالة جرى حرث كميات مهولة من مخلفات القد ـ الجلد والعظام والرؤوس والأمعاء التى نجمت عن عملية المعالجة ـ فى حقول نيو إنجلند كأسمدة، مما أصبح له أكبر الأثر فى إنتاجية التربة.

لكن القد لم يهيمن على اقتصاد نيو إنجلند على النحو الذى لعبه التبغ فى حالة ڤيرجنيا. كان أكبر السلع المصدرة لكنه لم يكن الوحيد، فاقتصاد نيو إنجلند أصبح الأكثر تنوعًا بفارق كبير فى أمريكا الشمالية البريطانية. إلى جانب القد، كانت نيو إنجلند تصدر الأخشاب وأشرعة السفن والصابون والزبد والجبن وأى فائض يحققه مزارعوها من القمح والبازلاء والشوفان والمحاصيل الأخرى.

وصارت الأخشاب، فى واقع الأمر، هى المحصول النقدى لنيو إنجلند وصناعتها الأولى الكبرى. وفى وقت مبكر، كعام ١٦٥٥م كانت توجد أكثر من عشرين ورشة لنشر الخشب تطل على ضفاف نهر بسكاتاكوا فى نيو هامپشير. وبلغ عدد الورش

سبعين ورشة فى عام ١٧٠٥م. كما كان يوجد عدد مماثل على أنهار نيو هامپشير. ومع انتهاء العصر الاستعمارى، سيصبح الخشب واحداً من أكبر الصادرات فى أمريكا الشمالية. ما بين عامى ١٧٧١ و١٧٧٣م صدرت نيو إنجلند لجزر الهند العربية حوالى سبع وسبعين مليون قدم لوحى[١] وستين مليون لوح صغير لكسو السقوف وثمان وخمسين مليون لصناعة براميل.

أحد أهم استخدامات أخشاب نيو إنجلند هو بناء السفن التى تحمل المنتجات الأخرى. ومع نهاية القرن السابع عشر، أصبحت نيو إنجلند واحدة من أكبر مناطق بناء السفن فى العالم، مع الآثار العظيمة المترتبة لذلك على اقتصاد نيو إنجلند ككل.

بناء السفن مشروع تجارى جد معقد، يتطلب أعدادا ضخمة من العمال، الكثير منهم شديدو المهارة فى عدد من الحرف، مثل تركيبات الحديد وصناعة الأشرعة والحبال وقطع الأخشاب وصناعة البراميل. ويتطلب بناء سفينة ذات حجم متوسط بمقاييس القرن السابع عشر إلى الجهود المشتركة لمائتى عامل أو يزيد.

وبينما تزيد تكلفة العمالة فى نيو إنجلند عن مثيلتها فى إنجلترا؛ لأنه كانت هناك منافسة فى الحصول على جهود الحرفيين، إلا أن تكلفة المواد الخام أقل بكثير، وبخاصة لأهم مكون للسفن الشراعية ـ الخشب. ونتيجة لذلك، تستطيع نيو إنجلند بناء سفينة بحوالى نصف ثمنها فى إنجلترا. وخلال الأربعين عاماً بين عامى ١٦٧٤ و١٧١٤م، بنت بوسطن وحدها متوسطاً يبلغ أربعين سفينة سنوياً، أى أنتجت أكثر من بقية المستعمرات الأمريكية الشمالية مجتمعة. واحتلت بالفعل مكاناً بعد لندن لتغدو أعظم مركز لبناء السفن فى الإمبراطورية البريطانية، حيث وجد بها خمسة عشر حوضاً لبناء السفن بحلول عام ١٧٠٠م. ولم يكن سكان نيو إنجلند بناة سفن فحسب، فسرعان ما صاروا ملاكاً كباراً للسفن. فبحلول عام ١٧٠٠م، كان ميناءا لندن وبريستول فقط داخل الإمبراطورية البريطانية هما اللذان فاقا بوسطن فى الشحن البحرى. فقد امتدت تجارة النقل التى اكتسبتها وطورتها نيو إنجلند لتغطى شمال الأطلنطى، والبحر المتوسط ومنطقة الكاريبى وماوراء ذلك. وحملت ما هو أكثر بكثير من منتجات وواردات نيو إنجلند.

---

(١) قدم لوحى: وحدة قياس تساوى ١٤٤ بوصة مكعبة

وتعتبر نيو إنجلند تسمية موفقة لهذه المنطقة، لأن اقتصادها كان متشابهًا مع إنجلترا مقارنة بكل المستعمرات الأمريكية الشمالية البريطانية. لم تكن هناك حاجة لإنجلترا فى نيو إنجلند إلا القليل. لكن نيو إنجلند لديها حاجة متسعة دومًا للسلع البريطانية المصنعة. واستجابة لذلك، نشأت وتطورت «تجارات مثلثة». كانت الأخشاب والأسماك واللحوم الآتية من نيو إنجلند تعطى لجزر الهند الغربية فى مقابل السكر والملح. وتؤخذ المنتجات السابقة إلى بريطانيا حيث يجرى مبادلتها بسلع مصنعة وبخاصة المنسوجات ومختلف الأدوات المعدنية التى كانت تباع بدورها فى نيو إنجلند. كان العسل الأسود الآتى من جزر الهند الغربية يقطر فى نيو إنجلند ليحول إلى الروم، ثم يرسل إلى أفريقيا فى مقابل العبيد. وكان العبيد يباعون فى جزر الهند الغربية، وكانت أسماك نيو إنجلند تتبادل فى إسپانيا والبرتغال فى مقابل النبيذ والفواكه لتباع فى بريطانيا وتدفع من أجل المصنعات. كما نقلت سفن نيو إنجلند جانبًا كبيرًا من إنتاج مستعمرات كارولاينا وتشيزاپيك إلى أوروپا وجزر الهند الغربية. الذهاب أينما تسنح فرصة، كان هذا شعار تجار نيو إنجلند الذين كانوا مثل كل التجار يسعون للشراء بسعر زهيد والبيع بسعر غال. واكتسبوا سمعة مستحقة، لأنهم كانوا يفعلون هذا بالضبط. ويمكن رؤية هذا النجاح فى المنازل العظيمة التى شيدها التجار المزدهرين فى موانىء نيو إنجلند.

بالرغم من أن نيو إنجلند طور أوسع اقتصاد متنوع فى أمريكا الشمالية، إلا أنها كانت بحاجة إلى استيراد معظم السلع المصنعة. لم تكن بريطانيا قد وصلت إلى ما أطلق عليها فيما بعد وهو «ورشة العالم»، لكنها كانت فى طريقها لتحقيق ذلك، فقد بدأت أولى ارهاصات الثورة الصناعية.

ومن بين أكبر احتياجات نيو إنجلند كانت السلع المعدنية التى لا غنى عنها فى كل الأنشطة الاقتصادية تقريبًا. يعد الحديد واحدًا من أكثر المعادن وفرة فى الأرض، لكن النحاس كان المعدن الذى استخدم أولاً بشكل منتظم. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن النحاس أيسر كثيرا فى العمل به. يسهل الوصول إلى درجة انصهار النحاس بالنار العادية، ويمكن عند تسخين بعض أنواع من النحاس الخام الحصول على نحاس نقى دون الحاجة إلى إجراء مزيد من المعالجات.

لكن الحديد لا يوجد فى حالة نقية (باستثناء حالات نادرة عند وجوده فى النيازك) لأنه نشط جدًا فى التفاعل الكيميائى، ولذا فهو يصدأ. وفى المقابل يتميز الحديد بدرجة انصهار عالية للدرجة التى تتطلب استخدام طرق خاصة، وعندما ينصهر يتعين استخدام وسائل هائلة فى الطرق عليه لتخليص المعدن من الشوائب مثل الكربون. ولذا، ففى الوقت الذى يمكن فيه لفرقة من أشبال الكشافة، باستخدام أساليب متوافرة، إنتاج نحاس جاهز لعمل الصانع الماهر، يتطلب الحديد وجود مشروع صناعى لإنتاجه.

وبمجرد ابتكار وتطوير التكنولوچيا اللازمة لتصنيع الحديد فى عام ١٤٠٠ق.م تقريبًا. اتضح تفوق الحديد على النحاس والبرونز الأكثر صلابة (وهو النحاس المخلوط بالصفيح) وسرعان ما برز ليصبح لا غنى عنه بالنسبة للحضارة.

لم يكن أمام المستوطنين الأوائل خيار سوى استيراد المسامير وحدوات الخيول وأوانى الطهى والمحاريث والأسلحة ومائة شىء آخر من المصنعات اليدوية تستلزمها الحياة خلال القرن السابع عشر. ولأن أقرب مسبك للحديد كان على بعد شهرين من الإبحار عكس اتجاه الريح، كانت السلع الحديدية غالية جدًا، وبالتالى فإنها أضحت عاملا مقلصًا لاقتصادات المستعمرات.

لكن بعد أحد عشر عامًا فقط أبحر الأسطول تحت قيادة جون ونثروپ إلى خليج ماساتشوستس وأسس المستعمرة هناك، أرسل ونثروپ ابنه واسمه جون أيضا إلى إنجلترا ثانية لإعداد الترتيبات لإنشاء مسبك للحديد فى بلده بالتبنى.

كان آل ونثروپ ينتمون لطبقة الأعيان ولهم أملاك زراعية فى سافوك، وكان جون ونثروب الأكبر يمارس المحاماة وقت أن وافق على أن يصبح حاكما للمستعمرة المرتقبة. كان هو الذى سك التعبير الأمريكى الخالد «مدينة على تل». كان ابنه أيضًا محاميًا وغارقًا لأذنيه بكلٍّ من العلوم والتجارة. وفى عام ١٦٦٤م سينتخب زميلاً فى الجمعية الملكية المنشأة حديثًا فى ذلك الوقت ليصير أول أمريكى ينال هذا التكريم.

وأنشأ ونثروپ الأصغر، الذى شغل منصب نائب حاكم لماساتشوستس وحاكمًا لكونيكتيكت، مصنعًا للملح لإمداد المستعمرات الجديدة بسلعة أخرى لا يستغنى عنها

وغالية جدّا عند استيرادها. لكن إنشاء مصنع للحديد كان بحاجة إلى ضرورة اقتصادية تفتقر إليها أمريكا بالكلية: رأس المال. وكان المكان الوحيد الذى يأمل فى أن يمده به هو إنجلترا، والذى سيكون مصدراً لرأس المال لمدة تطول عن القرنين التاليين.

قد يظن المرء أن إقناع أصحاب رؤوس الأموال بالاستثمار فى مشروع صناعى كبير يقع على بعد ثلاثة آلاف ميل فى وسط البرية سيكون عملية عسيرة. لكن وجود خطة للعمل التجارى وحفنة حقائق بارزة ورجل مبيعات مقنع هو عادة كل ما يتطلبه لجذب رأس المال لفكرة غير مجربة. كان على ونثروپ الإشارة إلى الميزة النسبية العظيمة التى تتمتع بها أمريكا وهى الخشب. ويعد الفحم النباتى، وهو خشب يسخن فى غياب الهواء حتى يتحول إلى كربون، ضرورياً لإنتاج الحديد مثل المادة الخام ذاتها. وغابات إنجلترا تقطع أخشابها بمعدل سريع، والفحم كان مايزال فى بداية استغلاله لأغراض صناعية فى الوقت الذى تملك فيه أمريكا مورداً لا ينضب من الخشب ويمكن أخذه مجاناً.

جادل ونثروپ بأنه باستخدام المواد الخام الرخيصة فى أمريكا، يمكن لماساتشوستس أن تصنع سلعًا حديدية تباع على نحو مربح ليس بالنسبة إلى نيو إنجلند وتشيزاپيك فحسب وإنما بالنسبة إلى إنجلترا ذاتها. من المؤكد أن ونثروپ كان مقنعًا؛ لأنه تمكن من توفير ألف جنيه إسترلينى من مستثمرين مختلفين، من بينهم ليونيل كوپلى، وهو واحد من أبرز تجار الحديد فى إنجلترا. وفى نهاية الأمر، بلغ إجمالى ما استثمر فى المشروع ١٥ ألف جنيه إسترلينى. ولإعطاء فكرة عما يمثله هذا المبلغ من ضخامة فى أربعينيات القرن السابع عشر فى ماساتشوستس، نذكر أن أعلى راتب سنوى فى المستعمرة فى عام ١٦٤٨م هو ٩٠ جنيهًا إسترلينيًا، وكانت تدفع للقس زكريا سيمز فى تشارلزتاون. (ولا يخلو الأمر من دلالة أن يكون أعلى راتب يدفع فى أوائل عمر المستعمرة إلى رجل من رجال الكهنوت).

أخذ ونثروپ يستكشف المواقع التى تصلح لإقامة مصنع الحديد واستطاع الحصول من الحكومة على منحة لشركته «كومپانى أوف أندرتيكرز» احتكاراً لإنتاج الحديد لمدة ٢١ عامًا فى المستعمرة وإعفاء من الضرائب. ولسوء الحظ، وقع اختيار ونثروپ على مكان سيىء ليكون أول فرن انصهار وكان فى برينترى، جنوب بوسطن، حيث اتضح أن إمدادات خام الحديد والمياه لتشغيل المصنع غير كافية.

وبسبب انشغال ونثروپ بالكثير من المشروعات واهتمامه بشكل متنام بكونيكتيكت حيث سيصبح حاكمًا لها طيلة الأعوام الثلاثين الأخيرة من حياته، قررت الشركة استيراد خبرة، وهى سلعة أخرى سيظل هذا البلد معتمدًا فيه على بريطانيا لما بعد الاستقلال بفترة طويلة. واستأجروا ريتشارد ليدر الذى له دراية كاملة بإدارة عملية إنتاج الحديد والاتجار فيه وعملوا الترتيبات اللازمة لجلب عمال مهرة فى صناعة الحديد.

بنى الآن ليدر مصنعًا للحديد فى لين شمال بوسطن، وهو موقع بلدة سوجس الآن، المطلة على نهر سوجس. وبحلول عام ١٦٤٦م، أى بعد مضى ستة عشر عامًا منذ أن وطأت للمرة الأولى قدم ونثروپ الأكبر شاطىء ماساتشوستس، بدأ إقامة مشروع صناعى كبير. لكن المشروع بدأ بداية متعسرة، مع تكرار وقوع حوادث مؤلمة وأحيانًا مهلكة للعمال المحليين الساعين لتعلم أساليب إنتاج الحديد ذات المتطلبات الكثيرة. وفى غضون ذلك، كان العمال المجلوبون يتسببون فى إحداث مشكلات خاصة بهم. وكان هؤلاء العمال قد اختيروا لمهارتهم وليس لتدينهم، مثلهم مثل الصيادين، فلم يندمجوا بسهولة فى مجتمع ماساتشوستس. وتمتلىء سجلات مبكرة لمحكمة لين بقضايا تتعلق بتورط عمال الحديد فى السكر والزنا وعدم التردد على الكنيسة وخطايا أخرى ضد نظام عالم البيوريتانز.

وكتب دكتور تشايلد، وهو واحد من المستثمرين الإنجليز الذى تصادف زيارته لبوسطن، كتب إلى ونثروپ عام ١٦٤٧ متذمرًا من أن «مصنعنا للحديد حتى تاريخه لا يحقق أرباحًا معتبرة». لكن مستثمر آخر أشار إلى أن «كل عمل جديد له مصاعبه». ومع هذا، فبحلول صيف ١٦٤٨ بدأت المطرقة التى تزن خمسمائة رطل المستوردة من إنجلترا والملحقة بالساقية التى يمدها بالطاقة نهر سوجس، تدق بانتظام، دافعة الشوائب بعيدًا عن الحديد المنصهر. واستطاع جون ونثروپ أن يكتب إلى ابنه أن «فرن الانصهار ينتج ٨ أطنان أسبوعيًا وقضبان الحديد تماثل القضبان الإسپانية جودة».

الصناعة الثقيلة وصلت إلى أمريكا الشمالية. وأخذ مصنع سوجس للحديد يظهر ملمحًا آخر من ملامح الاقتصاد الأمريكى الوليد. فى عام ١٦٤٦م حصل حداد فى المصنع، يدعى جوزيف جنكس على براءة اختراع جهاز وصف بأنه محركات

للطواحين التى تعمل بالمياه لتصنيع أدوات حادة مثل المناجل. وربما تعد هذه اللحظة الأولى على الإطلاق التى ظهر فيها «إبداع اليانكى» الذى اتصف به الاقتصاد الأمريكى، والذى كثيراً ما أصبح يدهش العالم، منذ ذلك الحين.

لكن فى الوقت الذى كان ينتج فيه مصنع سوجس كميات متزايدة من الحديد والمنتجات المصنعة منه، إلا أنه لم يكن يدر ربحًا. بدأ حملة الأسهم فى الضغط لإجراء تغييرات فى الإنتاج والإدارة التى آملوا فى أن تجعل المصنع يحقق ربحًا. لكن الأمور سارت ماليًا من سيىء إلى أسوأ، وفى عام ١٦٥٣م تفجرت الاضطرابات فى عاصفة من الدعاوى القضائية التى تصاعدت حتى وصلت إلى الرجل الذى كان يحكم إنجلترا آنذاك وهو أوليفر كروميل، السيد الوصى على العرش.

وبينما كان المحامون يتجادلون ويتنازعون، انهار المصنع وبدأ العمال فى الانصراف إلى فرص أخرى التى من بينها مصنع حديد أسسه جون ونثروب فى كونيكتيكت. وبحلول عام ١٦٧٦م صار أول مصنع للحديد ركامًا. وقدمت بلدة لين التماسًا لإزالة السد كى تتمكن أسماك الألويف [سمك من نوع الرنجة] من صعود أعلى النهر لوضع بيضها من جديد.

لكن لو كان أول مشروع تصنيعى فى أمريكا الشمالية باء بالفشل، فإن الفكرة الكامنة وراءه ـ وهى إمكانية جنى المال من إنتاج الحديد فى المستعمرات الأمريكية ـ سليمة. ومع نهاية الحقبة الاستعمارية، أى بعد مائة عام من ذلك التاريخ، كانت المستعمرات تنتج سبع ما ينتجه العالم من الحديد.

* * *

الفصل الثالث

إمبراطورية الأطلنطى

تأسست نيويورك، مثل مستعمرات نيو إنجلند وڤيرجينيا، من قبل مؤسسة ساعية للربح. لكن الشركة الهولندية لجزر الهند الغربية كانت مؤسسة أكبر بكثير من الشركات المبتدئة التى أسست المستعمرات الأخرى. لقد تكونت فى عام ١٦٢١م، وأعطيت احتكارا للتجارة فى مساحة امتدت من غرب أفريقيا حتى نيوفاوندلاند. أقيمت المستعمرة بتكلفة بلغت ٢٠ ألف جيلدر لاستغلال حقيقة أن نهر هدسون (كان الهولنديون يسمونه نهر الشمال) ييسر الدخول إلى مصدر الفراء التى يكثر عليها الطلب فى أوروپا. فى العام الأول، شحنت الشركة إلى أوروپا ما قيمته ٤٥ ألف جيلدر من الفراء، فاستردت فى سهولة تكلفة إنشاء المستعمرة.

فى بدايات القرن السابع عشر، كان الهولنديون يمتلكون أفضل اقتصاد متطور وأكثره توجها للسوق فى أوروپا. فقد اخترعوا أو تطوروا لمستويات جديدة معقدة فى بورصة الأوراق المالية وبورصة السلع والتأمين وتنظيم وإدارة الشركات. كما أنهم كانوا يتمتعون بأكثر حكومة متسامحة دينيا فى أوروپا. وسرعان ما زرعوا كلاً من الروح الرأسمالية الهولندية والحرية الدينية فى مستعمرتهم الجديدة فى أمريكا الشمالية. عندما حاول الحاكم، بيتر ستايڤسنت، وهو عضو مخلص فى الكنيسة الكالڤينية الهولندية المصلحة، طرد طائفة «الكويكرز»[1] البروتستانتية واليهود من نيو

(١) الكويكرز: (المرتعدين) جماعة مسيحية النشأة، سموا أنفسهم بجماعة الأصحاب، ولكن شاعت تسمية المرتعدين فى الإشارة إليهم.

أمستردام، لجؤوا إلى الشركة الهولندية لجزر الهند الغربية فى هولندا، وسجلت فى وثيقة عرفت باسم «احتجاج فلاشنج»[1]. وكتبت الشركة إلى بيتر ستايڤسنت على عجل وأخبرته بعبارات قطعية أن يهتم بشأنه كى يهتم الكويكرز بشئونهم.

وفى مطلع الأربعينيات من القرن السابع عشر كانت المدينة الصغيرة التى لم يبلغ عدد سكانها ألف شخص والواقعة على طرف جزيرة مانهاتن أكثر مدن أمريكا الشمالية تحررا من الأحقاد القومية أو المحلية. وقد أحصى قس فرنسى مالا يقل عن ثمانية عشر لغة يتحدث بها الناس فى الشارع فى هذا العقد. وكان تقريبًا كل المواطنين الألف جاءوا إلى هناك من أجل المال. ولم يسع الهولنديون حتى لبناء كنيسة لائقة على مدى سبعة عشر عامًا. ولم يكن بالفعل ممكنا أن يكون غرض الهولنديين من وجودهم فى العالم الجديد أكثر وضوحًا أكثر من هذا. فقد كان ختم نيو نيذرلاندز (أى هولندا الجديدة) هو حيوان القندس محاطًا بـ «الوامپوم»، وهو نوع النقود التى يستخدمها الهنود.

رغم أن الفترة التى حكم فيها الهولنديون المنطقة المطلة على الهدسون أربعون عامًا فقط، إلا إنهم تركوا بصمة عميقة على المدينة التى أسسوها. وماتزال المدينة بعد مضى نحو ٣٥٠ عاما على استيلاء الإنجليز عليها فى عام ١٦٦٤م، أكثر مدن العالم عظمة من ناحية الذهنية التجارية.

جاء الكويكرز إلى أمريكا الشمالية، مثل البيوريتانز، هربا من الاضطهاد الدينى. لكن مثل البيوريتانز اعتبروا الازدهار إشارة لرضا الله.

كان ويليام پن، ابن الأدميرال سير ويليام پن، يمتلك ضياعًا فى كلٍّ من إنجلترا وأيرلندا، وكان التاج مدينًا له بمبلغ ضخم وهو ١٦ ألف جنيه إسترلينى. وأصبح پن من الكويكرز فى شبابه، لكنه ظل على صلة طيبة بالملك تشارلز الثانى وشقيقه جيمس

(١) احتجاج فلاشنج: وثيقة وقعها أربعة مواطنين إنجليز فى ٢٧ ديسمبر ١٦٥٧ يحتجون فيها على الاضطهاد الذى يتعرض له الكويكرز، فاعتقلهم الحاكم ستايڤسنت، فتراجع اثنان وصمد اثنان إلى حين، ثم تراجعا وتصاعد الموقف عندما استضاف مواطن هولندى الكويكرز فى منزله فنفاه الحاكم إلى هولندا، وهناك بعد عدة أشهر تقدم بالتماس إلى الشركة الهولندية لجزر الهند الغربية التى أرسلت إلى الحاكم بعد شهر من المداولة تنصحه فيه بإنهاء الاضطهاد الدينى

دوق يورك، بسبب اتصالاته ودخله الهائل. وفى عام ١٦٨١م منح الملك تشارلز الثانى ويليام پن مساحة شاسعة من الأرض غرب نهر ديلاوير، يصل حجمها إلى أكثر من خمسة وأربعين ألف ميل مربع، وذلك فى مقابل إلغاء الدين المستحق على الملك. وجعلت هذه الأرض، وهى نحو ثلاثين مليون فدان من ويليام أكبر مالك أرض عادى فى التاريخ.

لكنها بالطبع كانت برية حين حازها ويليام وأراد أن يؤسس عليها «تجربة مقدسة» فى أمريكا ويزدهر خلالها. وكتب موضحا ذلك «بالرغم من أننى أرغب فى أن أنشر الحرية الدينية إلا أننى أريد بعض التعويض عن عنائى». وقد حقق بالقطع الجزء الأول من طموحه، حيث منح المستعمرة تسامحًا دينيًا شبه كامل ولم تنشأ بها كنيسة ولا حتى كنيسة تابعة للأصحاب (الكويكرز). وجعل زملاءه من أتباع طائفة الكويكرز يشترون ٧٥٠ ألف فدان، فجمع ٩ آلاف جنيه إسترلينى لتمويل المستعمرة.

وقد نمت پنسلڤانيا (أطلق عليها اسم والده وليس اسمه) بسرعة غير عادية. كانت المستعمرة غير مأهولة فى عام ١٦٨٠ وبعد مضى ست سنوات فقط تجاوز عدد السكان فيها ٨ آلاف شخص. فقد جلبت ثلاثة وأربعون سفينة ثلاثة آلاف مستوطن فى السنتين الأوليين. كما كان الحال بالنسبة لنيو إنجلند كان المستوطنون يشكلون عائلات بكاملها، وتوالدوا بسرعة كبيرة فى ظل مناخ المستعمرة المعتدل. وبحلول عام ١٧٠٠م، زاد عدد سكان پنسلڤانيا عن ثمانية عشر ألفا، وأصبحت مدينة فيلادلفيا أكبر مدينة فى أمريكا الشمالية البريطانية. ومع قدوم عام ١٧٧٦م، صارت فيلادلفيا التالية لمدينة لندن فقط على مستوى مدن الإمبراطوية البريطانية من ناحية عدد السكان، حيث بلغ عددهم متضمنًا الضواحى، حوالى أربعين ألف شخص.

كانت تربة پنسلڤانيا أفضل بكثير من تلك الخاصة بنيو إنجلند وفصل النمو الزراعى أطول. كان مزارعوها المتزايدون عددًا ينتجون فائضًا دائمًا يمكن الإتجار به. ولكن المحاصيل، التى تنمو بشكل جيد، مثل القمح فى پنسلڤانيا (وفى نيويورك) كانت هى ذاتها التى تزرع فى إنجلترا. وبالتالى، فإنه كانت هناك سوق محدودة فى البلد الأم للمنتج الزراعى للمستعمرات. وكانوا مثل سكان نيو إنجلند بحاجة إلى إيجاد أسواق أخرى. كان فائض القمح يحول إلى دقيق ويباع إلى جزر الهند الغربية، سواء الفرنسية

أو البريطانية، فى مقابل السكر والعسل الأسود. وصارت الصادرات من الدقيق مهمة لاقتصاد نيويورك إلى الدرجة التى جعلت الرسم المطبوع على الختم الذى اتخذه الإنجليز فى عام ١٦٨٦م يظهر برميلين وبينهما ريشات الطواحين.

لأن المستعمرات الوسطى، مثل نيو إنجلند، لا تستطيع الاعتماد على محصول نقدى مطلوب فى البلد الأم، فإنها لم تتطور اقتصاديًا كمستعمرات على النمط السائد فى ذلك الوقت. اعتمد أصحاب المزارع فى مستعمرات، مثل ڤيرجينيا، على وسطاء فى إنجلترا لتسويق التبغ من أجلهم، وتولى هؤلاء وظيفة مصرفيين ومندوبى بيع لحسابهم، فيشحنون إلى ڤيرجينيا سلعًا يتعذر الحصول عليها هناك. أما پنسلڤانيا ونيويورك، مثل نيو إنجلند، فقد طوروا طبقة تجارية خاصة بهم، كل جزء فيها معقد مثل البلد الأم واتصالات منتشرة على نطاق يسع الكرة الأرضية.

كانت المساحة التى تتاجر فيها بريطانيا قد اتسعت على نحو عظيم فى القرن السابع عشر، فى ذات الوقت الذى اتسعت فيه إمبراطوريتها الأمريكية أيضًا. فى عام ١٦٠٠م كان الحجم الهائل للتجارة الإنجليزية منصبًا على جيرانها فى شمال غرب أوروپا. وبعد مائة عام استولت بريطانيا على مكانة هولندا كأعظم دولة تجارية فى أوروپا. ووصلت السفن الإنجليزية إلى الهند، وشكل حجم التجارة مع آسيا وأمريكا ٤٠٪ من إجمالى نشاط البحرية التجارية البريطانية.

وليس من المدهش أن تريد الحكومة فى لندن تنظيم هذه التجارة، وذلك لسببين: السبب الأول بالطبع أن تتمكن من فرض الضرائب عليها. والسبب الثانى هو جعلها تتوافق مع المبادئ المهيمنة على الفكر الاقتصادى. وتعرف هذه المبادئ الآن بـ«النظام المركنتالى» وهو مصطلح سكه، كما هى العادة دائمًا، أحد خصومه، وهو آدم سميث. (سيتولى كارل ماركس سك مصطلح الرأسمالية فيما بعد).

ويرى المذهب المركنتالى أن أفضل شكل من أشكال الثروة هو المعادن النفيسة: الذهب والفضة. إذا افتقر بلد ما إلى المعادن النفيسة، يجب عليه أن يصدر أكبر كم ممكن من البضائع، ويستورد أقل ما يمكن منها، حتى يستطيع تحقيق فائض تجارى، يستطيع به أن يراكم مخزونه من الذهب والفضة. لم تحظ الفكرة بالقبول على مستوى

العالم قط. فعلى سبيل المثال، أظهر سير دادلى نورث (١٦٤١ ـ ١٦٩١م) بوضوح أن فكرة ثراء أمة يتحقق فقط على حساب أخرى ليست إلا أكذوبة، وأنه كلما زادت التجارة من صادرات وواردات كان أفضل. سيستشهد آدم سميث كثيراً بمقولات نورث وآخرين عند كتابته مؤلفه «ثروة الأمم».

لكن المذهب المركنتالى تواكب مع مصالح ذاتية اقتصادية قوية فى أوساط التجار والمصنعين الذين أرادوا الحصول على حماية من المنافسة الأجنبية، وسيطرت هذه الفكرة حيناً حتى جاء آدم سميث ونسفها تماماً فى واحد من أقوى الكتب حجة وتأثيراً فى التاريخ الغربى.

فى عام ١٦٥١م، بدأت إنجلترا تمرر سلسلة من القوانين البحرية لتنظيم التجارة لمستعمراتها الأمريكية. وقلصت هذه القوانين استخدام المستعمرات للسفن التى بناها ويمتلكها ويعمل على متنها بحارة من الرعايا البريطانيين. وكان الهولنديون أكفأ بكثير فى التجارة البحرية من الإنجليز فى منتصف القرن السابع عشر، فقد تمكنوا من شحن التبغ من تشيزاپيك إلى أوروپا بأقل من الثلث من تكلفة سفن الإنجليز. لكن مع تضخم البحرية التجارية الإنجليزية وبعدما صارت نيوإنجلند مركزاً رئيسيًا للشحن، تراجعت تكاليف الشحن حتى بدون منافسة هولندية.

كما نصت قوانين الإبحار على تصدير سلع معينة من المستعمرات الأمريكية إلى إنجلترا فحسب. وكان الكثير من هذه السلع ـ التبغ والأرز والسكر والنيلة والفراء والنحاس وعناصر تصنيع السفن (القار والزفت والتربنتين) ـ يعاد تصديره إلى القارة الأوروپية. وضمن هذا كلا أمرين: مرور تلك السلع عبر الجمارك البريطانية وتحصيل ضرائب عليها، وأن يتولى التجار الإنجليز التجارة مع أوروپا. ويمكن للمستعمرات أن تتولى مباشرة تصدير صادرات أخرى، مثل الدقيق من المستعمرات الوسطى والحديد الخام إلى حيثما وجدت أسواق.

ثالثا نصت قوانين الإبحار على أن السلع الأوروپية التى تستوردها أمريكا لابد وأن تمر عبر إنجلترا أولا، وبالطبع عبر الجمارك الإنجليزية باستثناء منتجات معينة آتية من جنوب أوروپا لا تنتجها إنجلترا فى المقام الأول، مثل النبيذ القادم من إسپانيا وماديرا

وجزر الأزور. ويعد الغرض الرئيسى من هذا التشريع هو حماية السوق الأمريكية لصالح المصنعين البريطانيين. لكن سرعان ما صارت بريطانيا أكثر المنتجين كفاءة لهذه السلع فى أوروبا، وتمكن البريطانيون من عرض هذه المنتجات دائمًا بأسعار أفضل على أية حال.

وفى الوقت الذى استمرت فيه المستعمرات الأمريكية فى النمو والتطور خلال القرن الثامن عشر، وضعت بريطانيا قيودًا متزايدة على التصنيع الأمريكى لحماية صناعاتها الداخلية المزدهرة. لم تكن هناك منتجات محظورة بوضوح، ولكن حجم الأسواق كان محدودًا، وكان بناء مصانع ومطاحن جديدة لإنتاج سلع معينة محظوراً.

لو كانت هذه القوانين تنفذ بصرامة لتقلصت الاقتصادات الناشئة للمستعمرات الأمريكية الشمالية بصورة رهيبة، ولكانت السفن والشحنات التى انتهكت هذه القوانين عرضة للاستيلاء عليها. لكنها لم تنفذ بصرامة، وفى بعض الأحيان لم يطبق بعضها على الإطلاق، وكان دفع الرشوة فى المكان المناسب، فى كل الأحيان، يمكن عادة أن يسفر عن عدم اكتراث مدروس من جانب المكلفين بتنفيذها. كان منصب محصل الميناء فى الموانىء الأمريكية منصبًا له شأنه على نحو خاص، بسبب أرباحه المرتقبة. وطوال الفترة الاستعمارية كان التهريب متفشيًا.

وفى الوقت الذى نما فيه الاقتصاد الأمريكى أثناء الحقبة الاستعمارية ليصبح أكثر إنتاجية وتعقيدًا عن ذى قبل، لم يكن اقتصادًا مكتملاً، وظلت المستعمرات معتمدة على البلد الأم بالنسبة لسلع وخدمات معينة لم تستطع توفيرها لأنفسها. وكان من بين هذه الخدمات، الخدمة المصرفية.

حظر القانون البريطانى تأسيس بنوك فى المستعمرات، كما حظر تصدير العملات المعدنية من بريطانيا للحفاظ على مخزونها من النقود. ودعا المستعمرات إلى خلق مخزونها من النقود بأفضل السبل المتاحة.

إن النقود سلعة لا تختلف عن بطون الخنازير أو الخدمات القانونية أو لوحات مفاتيح الحاسوب باستثناء جانب واحد حيوى. تعد النقود، من حيث تعريفها، سلعة معترفًا بها عالميًا كمقابل لكل سلعة أخرى. والنقود واحدة من الاختراعات الجوهرية

للإنسان الاقتصادى. فى اقتصاد المقايضة، لنقل أن شخصًا يريد أن يبيع برتقالا ويشترى تفاحًا، يحتاج إلى العثور على تاجر آخر معه تفاح ويريد أن يشترى برتقالا. ويسمى خبراء الاقتصاد، بما اشتهر عنهم من موهبة فى تأليف عبارات خرقاء، يسمونها «صدفة الحاجة المزدوجة».

لكن فى ظل اقتصاد يستخدم النقود، يمكن للتاجر الأول أن يبيع برتقالا فى مقابل نقود لأى شخص يريد البرتقال، ويستخدم النقود لشراء التفاح من أى شخص يعرض تفاحًا للبيع. وهذا من شأنه زيادة عدد المعاملات التى يمكن أن تحدث على مستوى اقتصاد بكامله على نحو مهول. وبالتالى، فإن النقود تؤدى اقتصاديًا وظيفة شبيهة كل الشبه بعمل العامل المحفز فى الكيمياء: فالعامل المحفز يعجل بالتفاعلات، بينما يظل هو بلا تغيير.

كما أن النقود تؤدى وظيفتين أخريين إلى جانب كونها وسيطًا للتبادل. تعمل النقود كوحدة حساب؛ أى أن قيمة كل السلع الأخرى يعبر عنها إطار النقود. وتعمل النقود كمخزن للقيمة، مكانًا لحفظ الثروة وقتيًا ما بين الاستثمارات الإنتاجية.

وقد أدت الكثير من السلع وظيفة النقود فى بعض النواحى. كانت الماشية فى العادة تستخدم، وبالفعل ما يزال هذا متبعًا فى بعض الثقافات. (كلمة pecuniary بالإنجليزية، وتعنى مالى، هى مشتقة فى واقع الأمر من الكلمة اللاتينية Pecus والتى تعنى ثور). وعندما بدأ استخدام المعادن، أدخلت الخدمة كشبيهة بالنقود، وتفوقت على الماشية بالكثير من المزايا. كان يمكن تقسيم قضيب النحاس إلى وحدات صغيرة، وحينما بدأ ختم القطع المعدنية، التى كانت تجرى المتاجرة بها بالوزن بقيمة معينة، وتجرى المتاجرة بها بالعد، أصبحت عملات معدنية. وتعد العملات المعدنية نقودًا حقيقية، وهى سلعة ليس لها وظيفة أخرى سوى كونها نقودًا.

وصار الذهب والفضة والنحاس، لكونها أعلى قيمة من الحديد، هى المعادن المستخدمة فى صنع العملات المعدنية. ولأنها عناصر فلا يمكن تصنيعها، إنما استخراجها فقط من باطن الأرض بشكل مكلف. لكن إذا كان لا يمكن تصنيع النقود، إذن يمكن خفض قيمتها عن طريق خلطها بسبيكة مع معادن رخيصة مع احتفاظها

بالقيمة الإسمية، أو إنقاص وزنها. ولجأ الحكام كثيراً إلى مثل هذه الوسائل العاجلة عند نضوب مواردهم المالية، مثلما يحدث عادة مع أولى الأمر. كانت النتيجة دائمًا على المدى الطويل هى ذاتها. تنخفض قيمة العملات المعدنية المخلوطة بسبيكة أرخص نسبة إلى سلع أخرى، بحيث يعدل رجال الاقتصاد مفهومهم عن قيمة العملة المعدنية على أساس وضع الخلط بالسبيكة، أى الانخفاض، فى الحسبان. ولأن النقود تعد سلعة خاصة، فإننا نستخدم مصطلحًا اقتصاديًا خاصًا لهبوط أسعارها، وهو التضخم.

لكن التضخم يمكن أن يتسبب فى حدوثه أشياء أخرى غير محاولة الحكومات دفع الفواتير المستحقة عليها بسلع رديئة. كما رأينا، فقد تسبب التدفق الهائل من الذهب والفضة على إسپانيا من العالم الجديد فى القرن السابع عشر فى حدوث تضخم عظيم فى الاقتصاد الأوروپى بكامله. ويرجع السبب فى ذلك ببساطة إلى عمل قانون العرض والطلب الذى لا يرحم. فعندما ارتفع المعروض من النقود (الذهب والفضة) نسبيًا أمام السلع الأخرى هبط سعر النقود.

فى ظل الحظر المفروض من الإنجليز على تصدير العملات المعدنية، تعين على المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا حل مشكلة الحصول على مصدر للنقود بطريق آخر. بدأت ماساتشوستس صك عملتها المعدنية الخاصة بها، بالرغم من القوانين الصارمة التى تحظر على أى شخص أن يفعل هذا سوى دار الصكة الملكية. كان شلن شجرة الصنوبر هو أول عملة معدنية تسك فى أمريكا الشمالية وبدقة متناهية. كان الناس يضطرون إلى الإتيان بما يملكون من فضة لفحص عيارها فى مقابل عملات ذات محتوى من الفضة يساوى ثلاثة أرباع ما يصك منه الشلن الإنجليزى. كان شلن شجرة الصنوبر يعتبر أصلا مضمونًا للاقتصاد فى ماساتشوستس حتى أن الحكومة البريطانية لم توقف تداوله إلا بعد ثلاثين عامًا فقط عندما ألغى امتياز ماساتشوستس الأصلى فى عام ١٦٨٤ أمر بإغلاق دار صك النقود.

اتجه أبناء المستعمرات الأخرى إلى أقرب شىء من وحدة قياسية نقدية دولية قائمة فى ذلك الوقت وهى الدولار الإسپانى. وشكل الدولار الإسپانى ربما نحو نصف كم العملات المعدنية المتداولة فى مستعمرات أمريكا الشمالية، وشكل الباقى خليطًا من

العملات البريطانية التى جلبها المسافرون، والعملات المعدنية الفرنسية، وأشياء من هذا القبيل. لكن لأنه كان هناك استنزاف للنوع الأمريكى من النقود بفضل حقيقة تعرض المستعمرات باستمرار لعجز تجارى متواصل مع بريطانيا، لم يكن من الكافى أبدًا سد الطلب على النقود.

مثلما هو الحال بالنسبة لأى تكنولوچيا أعلى، كان المستوطنون الإنجليز فى أمريكا الشمالية، المعتادون على استخدام النقود فى تعاملاتهم الاقتصادية، يريدون الاستمرار فى التمتع بمزايا الاقتصاد النقدى. وأخذوا يبحثون عن بدائل «للنقود الحقيقية».

فى نيو نيذرلاندز وفى أماكن أخرى، كان الهنود المتاجرون بالفراء يستخدمون «الوامپوم» كوسيط للتبادل التجارى، وكذلك الزبائن الذين يتحدثون الهولندية والإنجليزية. و«الوامپوم» عبارة عن خرز مصنوع من قواقع السمك الصدفى فى المياه العذبة، والتى تعج بها البحيرات والأنهار. كانت تخاط فى الأحزمة الجلدية فى أنماط مزخرفة. وسهل المثقاب الصلب عملية الثقب كثيرًا فى كل خرزة وبالتالى زاد من الكمية التى يمكن إنتاجها فى مقابل جهد معين. وأدى هذا إلى هبوط قيمة الوامپوم بشكل حاد، لكن استمر استخدامه كنقود حتى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر. على أية حال افتتح ج. س. كيمبل فى عام ١٧٦٠م مصنعًا لتزييف الوامپوم، فقضى على قيمة القطع الأصلية.

ولجأت مارى لاند وڤيرجينيا إلى ما يسميه الاقتصاديون «السلعة النقدية» باستخدام التبغ. ومع هذا تكمن المشكلة فى السلعة النقدية، سواء كانت تبغًا أو ماشية، فى أن السلعة يتعذر نقلها وكم يكون ذلك مكلفًا، وتتباين فى الجودة وتتذبذب فى القيمة الحقيقية. عندما انهار سعر التبغ فى الثمانينيات من القرن السابع عشر، حينما لحقت تشيزاپيك به ثم زاد إنتاجها على الطلب العالمى انهارت المستعمرات اقتصاديًا. اشتكى أحد أبناء مارى لاند قائلاً «إن التبغ، وهو مالنا، لا يساوى شيئًا . . . ولا يوجد قميص يمكن الحصول عليه هذا العام فى جميع أنحاء البلاد».

وقد أنعش التشريع الذى حدد مقاييس الحد الأدنى من الجودة للتبغ، وبدأ استخدامه ثانية كنقود بشكل كاسح فى المناطق التى يزرع فيها. فى عام ١٦٩٦، دفع لرجال الدين

فى ڤيرجينيا ما قيمته من التبغ ستة عشر ألف جنيه إسترلينى كراتب سنوى. ومع بدء القرن الثامن عشر أقرت المجالس التشريعية التبغ نقوداً قانونية لدفع الضرائب والديون العامة.

فى عام ١٧٣٠، أسست ڤيرجينيا نظامًا للفحص يقضى بأن يورد أصحاب المزارع التبغ، إلى مخازن عمومية حيث تفحص، وتصدر المخازن إيصالات بقيمتها. وعملت هذه الإيصالات عمل الأوراق النقدية (البنكنوت) بالرغم من أنها تذبذبت فى القوة الشرائية على نحو أشد بكثير لكونها مرتبطة بسلعة متقلبة، وهى التبغ، بدلاً من الذهب والفضة. وسرعان ما حذت مارى لاند حذو ڤيرجينيا.

كانت البنوك الإنجليزية تصدر الأوراق النقدية منذ مطلع القرن الثامن عشر. ولأن الأوراق النقدية قابلة للاسترداد بما يوازى قيمتها من الذهب المودع فى البنوك، فإنها كانت أدوات للتفاوض، وما تمثله من ذهب يمتلكه حاملها اعتماداً على سلامة نيته المطلقة. وتمتاز الأوراق النقدية بالكثير من المزايا على أشكال النقود الأخرى. كانت رخيصة فى إنتاجها (كانت فى الأصل تكتب يدويًا) وأسهل كثيراً فى حملها والتنقل بها مقارنة بالذهب والفضة اللذين يساندونها والقابعين داخل أقبية البنوك التى تصدرها.

لم تستطع المستعمرات الأمريكية، وهى بلا بنوك، أن تستخدم الأوراق النقدية. ولكن هذا لم يمنعها من إصدار أوراق مالية، ففى عام ١٦٩٠م عبأت ماساتشوستس قوات لمحاربة الفرنسيين فى حرب الملك ويليام (المسماة بحرب الأعوام التسع فى أوروپا). وأصدرت المستعمرة سندات اعتماد ـ أى تعهدات بالدفع آجلا ـ لدفع رواتب القوات. وأصدرت فى فئات خمسة وعشرة وعشرين شلنًا، وكتب عليها: «هذا السند المحرر . . . واجب الأداء من مستعمرة ماساتشوستس لمقتنيه سيكون فى قيمته مساويًا للمال، ووفقًا لذلك سيقبل من جانب أمين الخزينة والمتلقين التابعين له فى كل المدفوعات العمومية وفى مقابل أى مخزون فى أى وقت فى الخزانة العامة لنيو إنجلند، الثالث من فبراير، ١٦٩٠م. بناء على أوامر المحكمة العامة».

ولأنها كانت أوراقًا نقدية قانونية فى دفع الضرائب والتعهدات الأخرى الحكومية، جرى تداولها كنقود (بالرغم من أنه عادة كان ينتقص من قيمتها الاسمية). ولم تكن

هذه الأدوات هى الأوراق المالية الأولى فى أمريكا الشمالية فحسب، وإنما هى الأوراق المالية الأولى التى تصدر فى العالم الغربى.

وحققت الفكرة نجاحًا باهرًا، وسرعان ما انتشرت فى المستعمرات الأخرى فى نيو إنجلند وإلى پنسلڤانيا، التى أصدرت أول أوراق مالية خاصة بها فى عام ١٧٢٣م. وأصدر بنيامين فرانكين، وهو ما يزال فى الثانية والعشرين فى عام ١٧٢٩م، منشوراً بعنوان «استفسار متواضع بشأن طبيعة وضرورة العملة الورقية». وسرعان ما كوفئ بعقد لطبع الإصدارات المستقبلية من سندات اعتماد پنسلڤانيا، وكما هو معروف عنه صمم عدة وسائل لإحباط عمل المزورين، ومايزال البعض منها يستخدم حتى يومنا هذا.

وعلى أية حال، قلل فرانكلين من الخطأ القاتل الموروث فيما يطلق عليه الاقتصاديون «النقود المجازة للتعامل»، وهى نقود فقط لأن الحكومة تقول إنها نقود بدلاً من أن تكون مصنوعة من سلعة قيمة أو مستندة إلى سلعة قيمة. منذ الأيام الأولى للحضارة والساسة يواجهون خيارات عسيرة بين فرض ضرائب غير شعبية والتحكم فى الإنفاق الشعبى. وكانوا كثيراً ما يفعلون ذلك عندما يمتلكون سلطة دفع الفواتير بالأموال الرخيصة عن طريق خفض قيمة العملة أو خلطها بسبائك أخرى.

لكن العملات المعدنية لابد وأن تصنع من نوع ما من المعدن، كما أنها مكلفة لصكها وفى المقابل لا تكلف الأوراق النقدية شيئًا تقريبًا لإصدارها. وتعد غواية استخدامها كحل على المدى القريب للمشكلات النقدية ، وثبت أنها غواية لا يستطيع الساسة مقاومتها. ولم يكن الساسة فى أمريكا الشمالية البريطانية استثناء لهذه القاعدة. أصدرت حكومة ماساتشوستس المزيد والمزيد من الأوراق المالية، وسرعان ما أدى ذلك إلى اختفاء العملات الذهبية والفضية من التداول، تطبيقًا لقانون جريشام (العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة). وكان الناس يتداولون الأوراق المالية، ولكنهم احتفظوا بالنقود الأصلية أسفل المرتبة؛ لأنهم اعتبروها مخزونًا أعلى فى القيمة، وهى كذلك فعلاً.

وتسبب التضخم فى انخفاض قيمة الأوراق المالية سريعًا. وفى عام ١٧١٦م، ألغت ماساتشوستس الأوراق المالية واستوردت الدولارات الإسپانية، ولكن سرعان

ماعادت إلى طبع سندات الاعتماد مرة أخرى. وفى نهاية الأمر، أصدرت كل منطقة، ماعدا ڤيرجينيا، أشكالا متنوعة من الأوراق المالية، لكنها لم تستبدل الأشكال الأخرى من النقود. بلغ عدد الأوراق النقدية القانونية فى كارولاينا الشمالية فى ثلاثينيات القرن الثامن عشر، ما لا يقل عن سبعة عشر نوعًا مختلفًا.

كان العامل الموحد هو أن الجنيه الإسترلينى كان يستخدم كوحدة حسابية عامة، حتى وإن كانت العملات المعدنية البريطانية تشكل حفنة قليلة من النقود المتداولة، بينما لم تتداول أوراق النقد البريطانية على الإطلاق تقريبًا. كانت تكاليف التقييم والتحويل اللازمة لمختلف أشكال النقود لها كلفة جد بالغة على الاقتصاد الأمريكى الوليد.

بالرغم من الجلبة النقدية التى اتسم بها اقتصاد أمريكا الشمالية البريطانية، إلا أنه ازدهر ازدهارًا قل وجوده فى بقية العالم. فإلى جانب كونه مصدرًا رئيسيًا، وفى بعض الأحيان مهيمنًا، على المنتجات الزراعية والمواد الخام، وبانيًا للسفن والمتاجر، كان الاقتصاد يسد احتياجاته بشكل متنام من العناصر المصنعة.

كان يوجد تقريبًا فى كل بلدة وقرية حداد وصانع للبراميل وصانع عجلات وإسكاف ونجار ودباغ، وحرفيون آخرون قادرون على سد الطلب المحلى. وارتفع عدد مطاحن الدقيق ومناشر الخشب وحجم عملياتها. وفى البلدات الكبيرة، أخذ يتوسع الكثير من الحرفيين فى أعمالهم التجارية لتصل إلى مرحلة سابقة على الصناعة. ولد ويليام جونسون (١٧٤١ ـ ١٨٠٨م) فى مدينة نيويورك، لكنه قدم إلى تشارلستون فى كارولاينا الجنوبية وهو شاب وأسس سمعته على كونه حداداً، وسرعان ما أصبح أكبر من ذلك بكثير فأدار عملاً تجاريًا ضخمًا يعمل فيه موظفون وصبية مبتدئون وعبيد ينتجون كم منتجات حديدية كبيراً. وحقق جونسون نجاحًا عظيمًا ليصبح أحد ملاك الأراضى الكبار، وانضم إلى صفوة تشارلستون كعضو بالمجلس التشريعى لمدة طويلة وعضو فى مجلس كنيسة القديس فيليپ. وسيظل ابنه يعمل ضمن قضاة المحكمة الأمريكية العليا لمدة ثلاثين عامًا.

وكانت توجد أعداد متزايدة من أمثال ويليام جونسون فى بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا والمدن الأمريكية الأخرى. وفى ذلك الوقت، كانت معامل تقطير الروم تمد

السوق الأمريكية بنسبة ٦٠ ٪ من احتياجاتها، وتنامى عدد معامل تكرير السكر التى تحول السكر البنى المستورد من جزر الهند الغربية إلى السكر الأبيض الذى يفضله المستهلكون الأمريكيون. وصارت التجارة فى الروم والسكر المكرر والأطعمة والسلع المصنعة بين المستعمرات متسارعة. وبلغت نسبة الأطنان الخارجة من ميناء نيويورك والمتجهة إلى موانىء أخرى بالمستعمرات، وليس إلى أوروبا أو إلى جزر الهند الغربية، ٢٠ ٪ من إجمالى الصادرات.

وأخذ اقتصاد أمريكا الشمالية البريطانية يتوقف عن طبيعته كاقتصاد مستعمرات ويتشبه شيئًا فشيئًا باقتصاد البلد الأم، اقتصاد متنوع ومتطور. والعلامة الواضحة على ذلك هى تنامى إنتاج سلع الرفاهية فى المستعمرات. فى عام ١٧٧٤ كان يوجد فى فيلادلفيا أكثر من ثلاثمائة عامل يعملون فى إنتاج عربات الركوب. وأنتج صناع الخزائن الخشبية الصغيرة، أمثال توماس إلف فى تشارلستون، وتوماس آفليك فى فيلادلفيا وتوماس تاونسند وجون جودارد فى نيوپورت وجون كوجزويل فى بوسطن، روائع فى تصميم الأثاث تعد مكافئة من الناحية الفنية لتلك التى تصنع فى بريطانيا فى نفس الوقت. كما كان الفنانون أمثال جون ترمبول يعيشون انتعاشًا كبيرًا فى مجال رسم لوحات الأشخاص. ولم يكن هذا الاقتصاد يتطور بسرعة فحسب، إنما ينمو بنفس القدر. فقد تضاعف عدد سكان المستعمرات تقريبًا ما بين عامى ١٧٥٠ و١٧٧٠ من ١,١٧٦,٠٠٠ إلى ٢,١٣١,٠٠٠ وذلك بفضل الهجرة والعائلات الكبيرة جدًا والتى بلغ معظم أبنائها سن النضج. كما نمت المساحة التى يعيش عليها المستوطنون فى المستعمرات بسرعة أيضًا، ومع عشية ثورة الاستقلال بلغت هذه المساحة ١٨٠ ألف ميل مربع، نصف مساحة بريطانيا وتقترب بسرعة من مساحة فرنسا، أكبر دولة فى غرب أوروبا.

واتسم هذا الازدهار باتساع نطاقه بين السكان. وبالرغم من أن ٢٠ ٪ من محتلى القمة من السكان امتلكوا حوالى ثلثى الثروة فى سبعينيات القرن الثامن عشر، بينما امتلك ٢٠ ٪ من القابعين فى القاع ١ ٪ فقط منها، إلا أن البيانات الجافة تعطى صورة مشوهة؛ لأنها لا تضع فى حسبانها عامل الزمن. (يفعل خبراء الإحصاء الشىء نفسه، وعادة يفعلونه الآن لأسباب متحيزة وسياسية).

كان السكان فى أمريكا الشمالية البريطانية ينتمون لسن جد صغيرة، ولا يمتلك الأطفال عادة ثروة يعتد بها. يميل الناس مع تقدم العمر إلى أن يصبحوا أكثر غنى وتنطبق هذه القاعدة بكل تأكيد على المستعمرات الثلاثة عشر. وأجرى مؤرخ اقتصادى حسابًا اتضح منه أنه من بين سكان المستعمرات البالغ أعمارهم أربعين عامًا، يمكن اعتبار ٨٪ منهم فقط فقراء بمقاييس ذلك العصر، وأقل منهم بين البالغين الخمسين عامًا.

ويعود السبب فى ذلك ببساطة إلى أن المستعمرات فى أمريكا قبل ثورة الاستقلال كانت أرض الفرص لم ير مثلها العالم من قبل. وبدأت تطرأ على اقتصاد العالم الغربى فى منتصف القرن الثامن عشر بوادر التغير، واستشعرت أولى آثار الثورة الصناعية فى وسط إنجلترا. لكن الزراعة كانت ما تزال تهيمن على هذا الاقتصاد، وظلت الأرض الزراعية أساس الثروة. لم يوجد فى أوروبا وجزر الهند الغربية أرض صالحة للزراعة غير مستغلة، وإن وجدت فهى قليلة. أما كندا، فإنها وإن كانت غنية بالأراضى إلا أن موسم الزراعة كان قصيراً جدًا هناك، مما يقلص عدد المحاصيل التى يمكنها النمو ويقلص كذلك المردود منها.

لكن كانت المستعمرات الثلاثة عشرة بما لديها من ملايين الفدادين الغنية بالإمكانات تنتظر من ينهل منها. إذا لم تكن أرض مزرعة العائلة كافية لجميع الأبناء، فالغرب يوفر الأراضى وهو نادراً ما يبعد أكثر من يوم أو يومين على ظهر الفرس. وسرعان ما أصبح الانتقال إلى مكان آخر سمة أمريكية، ويعد المجتمع الأمريكى حتى يومنا هذا الأكثر تنقلا على وجه الأرض.

ولم يحس من ولدوا على أرض أمريكا فقط بسحر أنشودة الاستقلال المالى التى تترنم بها أمريكا، فقد كان هناك تدفق منتظم من المهاجرين، بالرغم من تباين أعدادهم بين عام وآخر، وقفز على نحو مستمر بعد عام ١٧٥٠م عقب انتشار الحديث عن الازدهار الأمريكى والفرص هناك. وكى يوفروا تكاليف الرحلة البحرية، كان هؤلاء الأشخاص مستعدين لقبول فترة محدودة من العبودية فى شكل خدم مرهونين بعقد.

فى عام ١٧٦٧م ، شرح سير هنرى مور، حاكم نيويورك من قبل ملك إنجلترا، هذا الأمر « بمجرد انتهاء المدة التى ألزمهم بها عقد الخدمة المرهونة، كانوا على الفور

يهجرون أسيادهم، ويحصلون على مساحة أرض التى يستغرق تجهيزها ما بين ثلاث إلى أربع سنوات يعيشون خلالها عيشة ضنكًا، وفى ظل أشد أنواع الفقر المدقع. لكن ذلك كله كانوا يحتملونه فى صبر ويخضعون له بأعظم أنواع الابتهاج، فكان الإشباع الناجم عن إمكانية أن يصبحوا ملاكا للأراضى يهون كل مشقة ويجعلهم يفضلون هذا المسلك على العيش المريح الذى يستطيعون جلبه لأنفسهم وعائلاتهم عن طريق العمل فى المهن التى شبوا عليها».

وكان لهذا الاستعداد لقبول المشقة والمخاطرة حاضرًا، أملاً فى تحصيل الثراء مستقبلاً، الذى اتصف به هؤلاء المهاجرون والملايين الذين جاءوا من بعدهم على مدى القرنين التاليين، أثرًا عميقًا، إن لم يتعذر قياسه، على تاريخ الاقتصاد الأمريكى. مثلما كان يرى المهاجرون فى القرن السابع عشر أنه لا تعارض بين عبادة الله والسعى لتحقيق النجاح الدنيوى، ترك الذين سعوا إلى تحقيق الاستقلال الاقتصادى فى القرن الثامن عشر أثرا قويًا على الثقافة الأمريكية الناشئة.

وفى الوقت الذى أخذت فيه الصفوة تنمو، نشأت فى المستعمرات البريطانية نسبة أكبر من سكانها ضمن الطبقة المتوسطة (لم يكن هذا المصطلح معروفًا فى القرن الثامن عشر، وأطلق عليهم بدلا منه فى ذلك الحين «النوع الوسيط ـ middling sort» أكثر من أى منطقة أخرى فى العالم الغربى. واتسع نطاق الازدهار. وعلى سبيل المثال، كان متوسط الطول بين الجنود المولودين فى أمريكا خلال ثورة الاستقلال أطول ببوصتين من نظرائهم الإنجليز، الذين كانوا ينتمون لنفس السلالة وراثيًا على نحو كاسح، وبالفعل كانوا عادة ذوا قربى. ولا يمكن أن يعزى هذا إلا إلى نظام غذائى أفضل بكثير من مثيله.

وبالطبع، لم ينطبق هذا الازدهار على العبيد، الذين هم من حيث تعريفهم، ليس لديهم ثروة أو دخل أو إمكانات، لا شىء سوى جهد مضن لانهاية له من جانب واحد لنفع الآخرين. لكن إذا لم يكن العبيد يتمتعون بالحرية، فإن محنتهم بدأت تدرك وتدان بشكل متزايد. وبزغت أول ارهاصات لحركة مناهضة العبودية فى القرن السابع عشر فى إنجلترا. واستنكر جورج فوكس (١٦٢٤ ـ ١٦٩١م)، مؤسس جماعة الكويكرز العبودية (لكن ويليام بن كان يمتلك عددًا من العبيد). وسيحتل الكويكرز

الصفوف الأمامية لفترة طويلة فى حركة إلغاء العبودية عندما تظهر فى قرن لاحق. وشجب الكثير ممن ليسوا أعضاء فى جماعة الكويكرز فظائع تجارة العبيد وإساءة معاملتهم فى مزارع فى جزر الهند الغربية، لكن ليس مؤسسة العبودية فى حد ذاتها. وعلى أية حال، مع منتصف القرن الثامن عشر، بدأت المؤسسة نفسها تتعرض للهجوم.

إن تغير اتجاه بنيامين فرانكلين، الذى امتدت حياته بطول القرن الثامن عشر، عكس تطور اتجاه المجتمع بشكل عام. ففى شبابه كان فرانكلين يعرض عبيداً للبيع بانتظام فى إعلانات فى صحيفة «پنسلڤانيا جازيت». وكان يمتلك عبدين جورج وكينج، اللذين كان يعملان فى منزله. وفى عام ١٧٥٠م اعتبر العبودية ضارة بالرفاهية فى بلد ما؛ لأنها تولد احتقار العمل، ورأى أن العبودية فى أفضل الحالات غير فعالة من الناحية الاقتصادية. ومع العقود الأخيرة فى حياته، صار مدافعًا عن إلغاء العبودية. وتكونت أول جمعية تدعو لإلغاء العبودية فى فيلادلفيا فى عام ١٧٧٥م، وقبل فرانكلين رئاستها فى عام ١٧٨٧م. وبحلول هذا الوقت، رأى حتى كبار ملاك العبيد، أمثال جورج واشنطن وتوماس جيفرسون، أن العبودية شىء غير أخلاقى، لكن لم يدر كلاهما كيف يخلصان بلدهما أو حتى مزارعهما منهم.

فى عام ١٧٧٢م، قضى لورد مانسفيلد، كبير القضاة فى بريطانيا، بأن العبودية مناقضة لقانون العرف، وأن يصبح العبيد أحرارًا بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض المملكة المتحدة. لكن هذا بالطبع لم يسفر عن شىء ذى بال للعبيد فى المستعمرات. استمرت حالة الاسترقاق حتى مع توغل وتعمق الشعور بالخزى المصاحب داخل المجتمع.

بحلول الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، أخذ الأمريكيون يتوقفون عن التفكير فى أنفسهم كمستعمرين عالة على البلد الأم. وتعد كلمة «الأمريكى» نفسها فى حد ذاتها دليلاً على ذلك. وقد استخدمت للمرة الأولى فى الإشارة إلى الشخص المنحدر من أصول أوروپية ويعيش فى أمريكا الشمالية وذلك فى عام ١٧٦٥م فقط، لكن سرعان ما اكتسبت رواجًا منذ ذلك الحين. وفى المقابل بات الأمريكيون يعدون أنفسهم بشكل متنام رعايا التاج البريطانى، وفى ذات الوقت أندادًا للرعايا البريطانيين الآخرين الذين يعيشون فى بقاع أخرى ضمن إمبراطورية أطلنطية عظيمة ومتنامية، تشمل البلد الأم.

ومثل كافة الرعايا البريطانيين أحسوا بأنهم ورثة كفاح من أجل الحرية، كفاح يبلغ عمره بالفعل خمسمائة عام.

وقد تجاهلت الحكومة فى لندن إلى حد كبير المستعمرات الأمريكية أثناء معظم القرنين السابع عشر والثامن عشر، سوى فى استخدامها كمقلب للنفايات لأرباب السوابق وغير المرغوب فيهم، ولتحمى المصالح الاقتصادية لكلٍّ من التاج وذوى النفوذ فى البرلمان مثل أصحاب مزارع السكر فى جزر الهند الغربية والتجار البريطانيين.

لكن المكانة الجغرافية السياسية لبريطانيا العظمى كانت تتغير بسرعة خلال الوقت نفسه. فخلال حكم الملك تشارلز الثانى كانت بريطانيا فى أفضل الأحوال قوة أوروبية متوسطة الحجم، بل إن تشارلز الثانى قبل دعمًا ماليًا سريًا من الملك لويس الرابع عشر، ملك فرنسا، فى مقابل الإذعان بالطبع للطموحات الفرنسية. لكن عندما استبدلت ثورة ١٦٨٨ المجيدة الملك جيمس الثانى، شقيق تشارلز الثانى، المجاهر علنا بكونه كاثوليكيًا، بالملك ويليام الثالث البروتستانتى المعادى للفرنسيين بشكل قاس، انخرطت بريطانيا فى سلسلة من الحروب بدا وكأنها لا نهاية لها ضد فرنسا والتى نجم عنها أن تحولت بريطانيا إلى قوة عظمى.

كان السلاح السرى لبريطانيا فى تلك الحروب هو نظامها المتقدم فى تحصيل الضرائب وقدرتها على تمويل جيشها عبر صورة حديثة من الدين القومى. فى الوقت الذى كانت ماتزال تستخدم فيه القوى الأوروبية مزارعى الضرائب (رجال تعهدوا للحكومة بدفع إيراد معين لها عن منطقة ما فى مقابل تحصيل الضرائب، محتفظين بالفائض لأنفسهم)[1] حولت بريطانيا محصلى الضرائب إلى موظفين بيروقراطيين، ونتيجة لذلك، جرى تحصيل نسبة أكبر من الضرائب ودخلت فعلا فى الخزانة البريطانية.

قبل القرن الثامن عشر، كانت ديون الحكومة عادة هى الديون الشخصية للعاهل، يجرى التفاوض بشأنها بشكل فردى مع المقرضين. لكن فى عام ١٦٩٤م أعطت

(١) نظام شبيه بنظام الالتزام أيام المماليك فى مصر

الحكومة البريطانية إلى بنك إنجلترا، امتياز المؤسسة وتتطور فى العقود القليلة التالية إلى بنك البلاد المركزى. وسرعان ما بدأ بنك إنجلترا فى إعداد قروض حكومية، وصرف سندات يمكن شراؤها وبيعها فى السوق، مما كان له أعظم الأثر فى تسييل ثروة الأمة المتاحة. وبدلا من الاحتفاظ بفائض رأس المال فى شكل ذهب وفضة، استطاع المستثمرون أن يحافظوا عليها فى شكل سندات يوجد لها سوق قائم بالفعل ويوفر دخلاً ثابتًا. ويمكن لهذه السندات، بدورها، أن تؤدى وظيفةضامن للقروض الشخصية لتوفير رأسمال عامل لمشاريع جديدة. ونما الاقتصاد البريطانى بسرعة نتيجة لذلك فى القرن الثامن عشر مع ازدياد حركة المزيد والمزيد من رأسماله.

سمح وجود دين قومى لبريطانيا أن تشن حربا بنجاح ضد بلدان أكبر منها فى عدد السكان، ويحظون بموارد طبيعية أكثر غنى. وشرح رجل الدولة الرومانى شيشرون هذا الأمر قبل ألفى عام قائلا «المال عصب الحرب بصورة لا تنتهى». وصارت بريطانيا محور سياسات القوة الأوروبية بسبب ديونها القومية.

لكن وضع بريطانيا الجديد كقوة عظمى لم يأت بثمن زهيد. فقد بلغ دينها القومى ١٦ر٣ مليون جنيه إسترلينى فى عام ١٧٠٠م فى نهاية حرب السنوات التسع. وفى عام ١٧٤٨م ارتفع الدين إلى ٧٦ مليون جنيه إسترلينى عقب انتهاء حرب وراثة العرش النمساوى. وبعد خمسة عشر عامًا، عندما وضعت حرب السنوات السبع أوزارها (التى أسمتها أمريكا الشمالية حرب الفرنسيين والهنود) وصلت إلى ١٣١ مليون جنيه إسترلينى، وهو رقم لا يمكن استيعابه بالنسبة إلى مجتمع يمكن لأسرة فيه أن تعيش بمبلغ ١٠٠ جنيه إسترلينى سنويًا فى رغد نسبى، وحيث يجعل مبلغ ألف جنيه كدخل سنوى من المرء رجلا ثريًا جدًا.

وقد امتدت حرب الفرنسيين والهنود عبر الكرة الأرضية من فورت دوكان فى غرب پنسلڤانيا إلى الهند. وانتهت بانتصار بريطانى. وأجبرت فرنسا على التخلى عن إمبراطوريتها فى أمريكا الشمالية لبريطانيا، منهية الوجود الفرنسى المهدد عند الباب الخلفى للمستعمرات البريطانية. وأصبحت المستعمرات للمرة الأولى فى تاريخها القصير آمنة من الهجوم الأجنبى فى ظل هيمنة سلاح البحرية الملكية على المحيط الأطلنطى ووجود عشرة آلاف جندى بريطانى على التخوم للحفاظ على السلام مع الهنود.

وسعت الحكومة البريطانية المرهقة من أعباء خدمة دين قومى مهول ـ وجهت نسبة ٦٠ ٪ من ميزانية الحكومة فى تلك الأعوام لدفع فوائد الدين ـ فى الوقت الذى استمرت فيه فى تمويل جيش ضخم، سعت إلى البحث عن موارد جديدة للعائدات. وليس من المدهش أن تتجه أنظار بريطانيا إلى إمبراطوريتها فى أمريكا الشمالية التى كانت فى طريقها لتصبح بسرعة قوة اقتصادية كبرى هناك. وكان سكان المستعمرات، فى نهاية المطاف قد استفادوا استفادة عظيمة من نتيجة الحرب مع الفرنسيين والهنود، كما كانوا يدفعون ضرائب مخففة جداً مقارنة بالرعايا البريطانيين الذين يعيشون فى البلد الأم. كان البريطانى المتوسط يدفع ٢٦ شلنًا ضرائب فى السنة، والأمريكى المتوسط لا يدفع سوى شلن واحد فقط. فكان من باب العدل والإنصاف أن تفكر الحكومة فى لندن بشكل منطقى، فترى أن على المستعمرات أن تسهم بقدر أكبر فى تكاليف الإمبراطورية.

علاوة على ذلك، سلطت الحرب مع الفرنسيين والهنود ضوءاً أكبر على ما يدور فى المستعمرات، فكشفت أشياء لم ترض إطلاقًا الحكومة فى لندن. كان مسئولو الجمارك فى المستعمرات فاسدين وغير أكفاء إلى الدرجة التى شكلت فيها التعريفات التى كانوا يجلبونها للدولة كعائد نحو الربع فقط من تكلفة إدارة التعريفات. وكان التجار فى المستعمرات ببساطة يتجاهلون الأجزاء غير المريحة فى قانون الإبحار. ففى عام ١٧٣٣م حفاظًا على المصالح البريطانية فى مجال إنتاج السكر، أمر البرلمان بأن تستورد المستعمرات الأمريكية العسل الأسود من الجزر المنتجة للسكر والتابعة للتاج البريطانى فقط. لكن العسل الأسود كان أرخص بكثير فى جزر الهند الفرنسية، واستمر التجار فى الشراء منها. حتى فى خلال فترات الحرب بين بريطانيا وفرنسا.

سيظل الناس الذين يتمتعون بميزة اقتصادية، مهما تكن هذه الميزة غير عادلة، على الدوام سياسيًا قدر استطاعتهم للاحتفاظ بها. لا يختلف الأمر، سواء كانت هذه الميزة فى شكل الانتفاع من عرق شخص آخر أو حماية من تعريفة جمركية لا حاجة لها أو إعفاء من الضرائب. ولأن الميزة للقلة تكون محددة ومعتبرة، بينما تظل التكلفة عادة فى عين الكثرة من المحرومين عادة مخفية وقليلة، وتخرج القلة منتصرة مهيمنة دائمًا على الكثرة فى مثل هذه المنازعات السياسية.

وبالقطع فإن سكان المستعمرات قاوموا بغضب عارم الضرائب المخففة جدًا التى أزمعت بريطانيا فرضها وإحكام تطبيق اللوائح المنظمة للتجارة. وجادلوا بأنه لا تفرض الضرائب على الرعايا البريطانيين إلا عبر ممثليهم فى البرلمان، وهم لهم من يمثلهم فى مجالسهم التشريعية للمستعمرات، وليس فى برلمان وستمنستر. إذن، فإن البرلمان ليس له سلطة فرض الضرائب عليهم. وبما أن كافة الرعايا البريطانيين متساوون فى أهليتهم للحرية، فبأى حق يمرر البرلمان قوانين فى مصلحة التجار البريطانيين على حساب تجار المستعمرات ؟

مثلما يحدث عادة خلال الخلافات الأسرية، مع تعمق المجادلة، كلا الجانبين لا يسعى لفهم وجهة نظر الآخر، بينما يكثر الجهر بالمزيد والمزيد من المظالم. كثيرًا ما صرح أبناء المستعمرات بأن الإذعان للمطالب البريطانية سيحولهم من رجال أحرار إلى عبيد، وهو وضع من الخدمة الذليلة التى يعرفونها جيدًا. وانطلاقًا من أنهم لم يعودوا بحاجة إلى القوة العسكرية البريطانية للدفاع عنهم، فهم لا يستطيعون أن يروا ضرورة لاحتفاظ الإمبراطورية ككل بهذه القوة.

وعلى الجانب الآخر، كان التعليق البريطانى على الأزمة يستخدم بشكل ثابت كلمات مثل المزارع والأطفال، فى إشارة إلى المستعمرات وسكانها. وأنهم تابعون ويجب أن يعاملوا على هذا الأساس. وعلاوة على ذلك، لم يكن لدى معظم من فى المؤسسة البريطانية الحاكمة شك فى أنه عندما يجد الجد، ستتعامل قواتهم العسكرية المتفوقة بسهولة مع أى مقاومة تبديها المستعمرات.

لكنهم كانوا خاطئين. كان ويليام پيت، إيرل شاتهام، رئيس الوزارة المسئول عن النصر فى الحرب مع الفرنسيين والهنود، أكثر دراية. قال للبرلمان «لا يمكنكم التغلب على أمريكا». لكن الأعضاء لم يكونوا فى حالة ذهنية تسمح لهم بأن يصغوا إليه.

* * *